

تأليف

ابرهيم عبد القادر المازني

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصرى رقم ٦

مطبوعات المطبعة العصرية بمصر*

م

٧٠ القاموس العصري عربي وانكليزي تأليف الياس انطون الياس

٥٠ » » انكليزي وعربي » » » » »

٢٠ قاموس الجيب عربي وانكليزي » » » »

١٥ » » انكليزي وعربي » » » » »

٣٠ » » » » وبالعكس » » » » »

٥٠ » المدرسي » » » » » »

١ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية » » » »

١٢ الهدية السنية » » » والعربية » » » »

٧٠ قاموس عربي وانكليزي (باللفظ) تأليف سقراط سبيرو

١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة مصورة) ترجمة توفيق عبد الله

٣ بول دي سويف الفاجرة (قصة جميلة) » » »

١٠ رواية تاييس مصورة (لاناتول فرانس) » احمد الصاوي محمد

١٥ » الزنبقة الحمراء (» ») » » » »

١٠ التربية الاجتماعية تأليف علي فكري

---

* تطلب هذه الكتب من كل المكاتب في مصر والسودان وفلسطين وسوريا والعراق ، او منا رأساً بالعنوان الآتي : —

الياس انطون الياس ، صاحب المطبعة العصرية (صندوق البريد رقم ٩٥٤ مصر

ص

١٠ مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل بيدس

١٠ الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون) ترجمة صادق رستم

٨ مقدمة الحضارات الاولى » » » » »

٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات (مصوّر) تأليف الدكتور فخري

٢٥ » » » » مجلد بقماش » »

٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها » »

١٠ رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الاحد

١٠ الغربال ، بقلم مخائيل نعيمه عضو الرابطة القلمية بامريكا

٢٥ علم الاجتماع (الجزء الاول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف

٢٥ » » (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية) نقولا حداد

١٠ حصاد الهشيم (مصور) تأليف الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

١٠ مختارات سلامه موسى تأليف (الكاتب الاجتماعي الشهير)

١٠ نظرية التطور واصل الانسان الاستاذ سلامه موسى

١٠ اليوم والغد » » »

١٥ أسرار الحياة الزوجية ترجمة نقولا حداد

١٥ الحب والزواج تأليف » »

١٠ مكايد الحب ترجمة اسعد خليل داغر

١٥ في أوقات الفراغ تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

٥ خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل

٣ كتاب الحقوق الوطنية تأليف فرنسيس مخائيل

غ

٣٠ روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر

١٠ الآراء والمعتقدات تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر

٨ رواية الانتقام المذب ترجمة الاستاذ اسعد خليل داغر

١٠ فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)

١٥ اهوال الاستبداد تأليف خليل بيدس

٣٠ رواية باردليان (٣ اجزاء كبيرة) ترجمة المرحوم طانيوس عبده

٢٠ « الاميرة فوستا (جزآن كبيران) « » » »

١٦ « كابيتان (جزآن كبيران) « » » »

١٠ « فارس الملك » » » »

١٦ « الساحر العظيم » » » »

٥ « روكامبول (عن الجزء الواحد) « » » »

١٥ « فلمبرج (جزآن كبيران) » » » »

٥ « مروضة الاسود » » » »

١٦ « عشاق فينيسيا (جزآن) } (تحت الطبع) » » » »

١٠ « المتنكرة الحسناء } » » » »

٦ « النفس الحائرة ، تأليف فريد افندي حبيش

١٥ الدنيا في اميركا تأليف الاستاذ امير بقطر

١٠ مراجعات في الادب والفنون تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد

٢٠-٢٥ اناتول فرانس في مباذله ، تأليف سعادة الامير شكيب ارسلان

ص		
٣٠	ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء	تأليف اسماعيل بك مظهر
٨	التعليم والصحة	تأليف الدكتور محمد بك عبد الحميد
١٢	المرأة الحديثة وكيف نسوسها	بقلم الاستاذ عبد الله حسين
٥	مركز المرأة في شريعتي حمورابي وموسى	ترجمة الاستاذ سليم عقاد
١٠	عشرة أيام في السودان ،	تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

المقدمة

كتبتُ هـذه الفصولَ وغيرها — كثيراً غيرها — في الفترة الطويلة التي كان فيهـا شبح الماضي — أي نعم، طيف الماضي — يعـايشني . وكان أقرب جيراني الى نفسي ، السماء . وكنت يومئـذ — وما زلت — في رقعـة من الأرض مدحوةٍ للتفكير والأحلام والموت . قد طال عهدي بها و إلفي لها حتى ليكبر في وهمي — حين يستغرقني روحها — أني ههنا كنت قبل ميلادي ، واني بعضهـا ، وقطعةٌ منها ، لو علم الناس . وهي جمـة الحالات ، وان كان ظاهرها لا يكاد يلحقه تغيير ، وأقوى مايروعني من أطوارها ، فقدانُها الوعيَ ، فلو نُفخ في الصور ما تنبهت . وقد تبـدو لي كأنّ يد القدرة التي بسطتها قد ملّتها وانصرفت عنها وشُغلت بسواها فيدركني عليهـا العطف . وكثير ما خيل إلي كأني ألمح فيها عروقَ « العلة الاولى » وشرايينها وأنسجتها ، واني أحس خفقها وأسمع نبضهـا . وهي تسلي تفكك ذراتها ، كلٌّ كامل في رأي العـين وفي إحساس القلب . وربما توهمتها مخًّا عاريًا يُنشيء مالا يدري . وقد يتمثل لي فيها رأيُ أرضنا — أو ما أحسبه رأيهـا — في الحياة والمساعي حتى لأكاد أسمعها تقول بلسان هذه الصحراء للناس أو للمقادر

« ما جدوى هذه المساعي ؟ ما خير أن تزخر على ظهري الحياة ؟ لاية غاية أو في أي سبيل إرهاقي وكدي وإملالي على الادهار ؟ انه عبث متواصل في الوسع رفع مؤونته بالمحو والسلب . وقد تكون لهذا حكمة ، ولكنها حكمة كانت تكون عندي أعدل لو أنها شاءت ألا تكون هذه الحيوات »

وما ضربت في هذه الصحراء ، أو صافح وجهي نسيمها ، أو سفت الرياح على" رمالها ، أو أدرتُ عيني في عرضها الازلي ، إلا هتف بي من ناحيتها هاتف بقول ابن داود

« باطل الاباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضي ودور يجيء ، والارض قائمة الى الابد . . . كل الانهار تجري الى البحر ، والبحر ليس بملآن . . . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الانسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر ، والاذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذي صُنع فهو الذي يُصنع ، فليس تحت الشمس جديد . . .

« أنا الجامعة ، كنت ملكا على إسرائيل في اورشليم ، ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات . . . فاذا الكل باطل وقبض الريح ! »

وانا أيضاً كالجامعة ، وجهت قلبي الى المعرفة ، وامتحنتُ نفسي بالسؤال ، وعالت روحي بالتفتيش « بنيت لنفسي « آمالا »

غرست لنفسى « أوهاماً » عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها « أحلاماً » من كل نوع ثمر . . . وهذا كان نصيبي من كل تعبي... قبض الريح ! »

واستنفد العناء مجهودي كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الارض.

وكل بما عنده يجود ! زرعت حصى فى ارض صفوان وهذا حصادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس وهانذا أؤديها الى القارئ وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت ، كما سيخرج القارئ ، وكما سنخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شيء . . ؟

ابرهيم عبد القادر المازنى

سبتمبر سنة ١٩٢٧



بين القراءة والكتابة

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة فى الادب ، لانى كنت أقرأ ! والقراءة والكتابة عندى نقيضان ، وقد كنت — وما زلت — أمرءاً يتعذر عليه ، ولا يتأتى له ، أن يجمع بينهما فى فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة فى ذلك فلم يفتح الله علي بتعليل يستريح اليه العقل ويأنس له القلب. وما أظن بى الا أن الله ، جلت قدرته ، قد خلقنى على طراز « عربات الرش » ! التى تتخذها مصلحة التنظيم — خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ، ويفرغ ليمتلىء ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ فى رأسى ، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع الى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى هذا الذى خلقه الله لى خلقة عربات الرش كما قلت ! حتى اذا شعرت بالكظة ،

وضايقني الامتلاء، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء وقمت عنه متثاقلا متثائبا مشفقا من التخمة ، فلا ينجيني الا أن أفتح الثقوب وأسح !؟ وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسي: أهذا الذى ركبه الله لك يامازني بين كتفيك رأس كرؤوس الناس أم معدة أخرى ؟؟ وأداة نظر وادراك وتفكير هو أم مخزن يكتظ حينا ويخلو أحيانا تبعا لانتقال الاحوال بك ؟ والحق أقول أن الجواب يعييني ! واذا لم أكن قد ركبت من الوهم شر الحمير ! فان الناس في الاكثر والاعم انما يعالجون الكتابة لأن في رؤوسهم فكرة أو خالجة ، كائنة ما كانت ، يبغون العبارة عنها والافضاء بها ، ولست أراني كذلك ، ولقد يخيل إلي في بعض الأحايين أن في نفسي معنى معينا ، ويؤكد ذلك عندي ويقرر اعتقادي به ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب ألتمس هذا المعنى أو الخاطر فاذا به قد تبخر ! واذا بي كابني حين يجلس الى جانبي ويحاول أن يقبض على الدخان الذى يتصاعد من سيجارتي ، وأنا أضحك من هذا الذى يحاوله ، وألهو به وأقول انه يجرب في عالم المحسوسات بعض ما أعانيه في عالم المعنويات ! وكثيرا ما يدفعني الى الكتابة احساس غامض إلا انه من القوة بحيث لا يسعني مغالبته فأتناول القلم ، وأنا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذى يثب الى يدي ، كما ينجذب الحديد الى المغناطيس ، وأسرع في الكتابة وأمضي فيها إلى غايتها المقدورة ، شأني في ذلك شأن الذى يسير وهو نائم ! ينهض من

فراشه و يخطو ، و يذهب هنا وههنا ، و يتكلم أو يباشر بعض الاعمال ، ولكن وعيه ليس تامًا ، وارادته لا دخل لها فى شىء مما يصدر عنه .

وأحيانًا أفعل هذا : أسأل نفسى « أفى رأسك شىء ؟ » وأعنى بالشىء ماله قيمة ، لا أى شىء على الاطلاق ، فتساورنى الشكوك فأنقر بأصبعى على جوانب رأسى كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ! وربما أسفت لأنى لا أستطيع أن أتناول رأسى هذا وأن أقلبه بين كفىّ وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ ! ثم أقول لا بأس ! القلم حاضر والورق تحت عينى ، فلأقم حد هذا على صفحة ذاك ، ولأفتح ثقب هذه « الحنفية » ثم فلأنظر ماذا يقطر منها أو يسيل . أوَ لا يدير أحدنا صمام « الحنفية » أحيانًا ليرى أفيها أم ليس فيها ماء ؟ ؟ نعم ! وكذلك أمتحن نفسى من حين الى حين كلما شككت وكبر فى ظنى أن رأسى قد أصبح فارغًا ! ولا أفعل هذا ، حين أفعله ، إلا على سبيل الاختبار وطلبًا للاطمئنان لا رغبة فى الكتابة ولا عن قصد اليها . حتى اذا وجدت القلم يجرى وألفيت مراعفه تقطر ، قلت الحمد لله ! وأقصرت !

وقد أبدأ المقال معتمداً شيئًا بعينه فيجرى القلم بخلافه ! وشبيه بهذا أن تريد السفر الى الاسكندرية فتحملك رجلاك الى قطار يذهب بك الى السويس ! وأحسب ذلك انما يكون كذلك لان الكلام يفتح بعضه بعضًا وقد يفتنك وأنت تكتب ، معنى يعنّ لك فيلهيك عما كنت فيه و يدفعك من طريقه الى غير ما قصدت اليه .

وقد تأخذ فى كلام تحسبه هيناً فتتكاءدك الوعور وتتعاظمك العقبات فتميل عنه الى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله فى الكتابة على نية معقودة ثم أعدل فى بعض الطريق عنها وأتحول الى سواها ويجيء الكلام متناولاً طرفاً من هذا وأطرافاً من ذاك ويعجزنى أن أختزل مضمونه فى عنوان فأدع المقال بلا رأس وأقدمه هكذا الى الاستاذ أمين بك الرافعى فيضع هو — جزاه الله عني خيراً — ما يوافقه من العناوين !

وأمري مع الكتب أغرب . كنت فى أول عهدى بها — أى منذ عشرين سنة أو نحو ذلك — أذهب فى أول كل شهر الى واحد من باعتها فيتقدم الى العامل سائلا عن حاجتى فأبينها له فيرفع رأسه الى الرفوف ويدور حول نفسه وهو فى مكانه ثم يلتفت اليّ وعلى شفتيه — دون عينيه — ابتسامة جهل وغباء ، ويهز لى رأسه آسفاً . فأنحّيه عن الطريق وأمضى الى الرفوف وأجيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر الى ما فوق الأذنين ان كان فوقهما شيء يستحق الذكر ! وكنت لا أتخطى عتبة البيت الا متأبطاً كتاباً ، ولا تمضي علي ليلة الا طالعت فى بعضها قليلا أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسي فى وحدتى وسميرى فى خلوتى ، وكنت أستغنى بها عن متع الحياة ولذات العيش وأقول انها « تدخل فى متناول الحس ، العواطفَ والمدركاتِ وكلَّ ماله وجود فى العقل » وانها توقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر

النفس كل ما تستطيع الطبيعةُ البشرية احتماله وكلّ ماله قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وتدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والابد والحق،وانها تمثل ذلك للاحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الالم والحزن والخطأوالأثم، وانها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وانها تسد النقص فى تجاريب المرء وتثير فيه تلك العواطف التى تجعل حوادث الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لانه ليس بالانسان حاجة الى التجريب الشخصى لتتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهرُ» التجريب الذى تهيؤه له الكتب. وانما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لان كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل فى الرأى قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الارادة ، ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعــة بالذات أو يأتى التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التى تمثل هذه الحقيقة، فان فى طاقة الانسان أن يصور لنفسه ماليس له وجود حتى يعود وكأ ن له جسماً يحس ويلمس ، فسيان عند الانسان أن يؤثر فيه الشيء أو مثاله،لانه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن مثــلا على كل حال ، وسواء أكان الشيء حاضراً أم ماثلاً فى الخيال بصورته،فان الانسان لايسعه الا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمةوالقلق والفزع والحب والاجلال والعجب والشهرة.

فكأن هـــذه الرموز هي اللسان المترجم — كما يقول هوريس — عن الحقائق

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه، وكان مثلي كمثل أشعب الذي حكوا ان صبية التفوا به وأثقلوا عليه فأراد ان يصرفهم عنه فقال لهم ان في مكان كذا وليمة فاذهبوا اليها وأصيبوا منها،فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعـدو في أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسخر من نفسه كذلك انقلبت عن الكتب ، فلا أنا أفدت شيئًا سوى قمع الشباب واضاعة فرصته واراقة مائه في تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغي أن تُفهم أو سددت نقصًا في تجاريبي أو استطعت أن استغني « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب الشخصي ، وشر من ذلك أني اطلعت من هـــذه الـكتب على صورة أو صور للحياة ، ليس أكذب منها ولا أبعد ! ولا نكران انها أيقظت نفسي وفتحت عيني ونبهت حواسي وابتعثت مشاعري وجعلتني أشـــد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً لتلقي مؤثراتها ولكن أليس معنى ذلك انها جعلتني أتعس وأشقى مما كنت أكون لو ظللت أرتع في بحبوحة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفز بهذه النعمة التي لم أعد بها غنيًا ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالق للرياح والمدر ، كما أقول من قصيدة صنعتها بعد ان فطنت الى ما أضعت من عمري ؟

كم غصت فى لجة الحياة فما ... فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر ... حسبته درة من الدرر !
فخل كأس العناء تسلبني ... كنزى وتمحو سلاسل الخبر
ما ضرنى لو جهلت ما علمت ... نفسي وما قد أفادنى نظرى ؟
أو لو نسيت الذى شعرت به ... فى كبرى الآن أو لدن صغرى ؟
أو لو سلوت الذى كانت به ... على الذى كان فيه من سُكُر ؟
أو لو فقدت الذى فرحت به ... وما وجدنا فى حدة الظفر ؟
أثمّ صوتٌ تعيد نبرتهُ ... إلىّ ذِكرَ الربيع والزهر ؟
أثم عينٌ تثير نظرتُها ... أحلامَ نفسى فى ريّق البكر
وتنشر اللذةَ المضيئةَ لى ... حلمًا من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمرى فى الارض زينتها ... من مسمع فاتن ومن نظر
وروضة العيش جد حالية ... من زهر مونق ومن ثمر
كأنها لافترار بهجتها ... تُحير نطقًا لمدمن البصر
واهًا لقمريّها اذا اتسقت ... أسجاعُه واستراح للسّحر !
واهًا لسحر فى لحظ نرجسها ... يسطو بوقع السجوّ والفتر !
واهًا لأيكاتها إذا همس الـ ... نسيمُ فى أذنها مع القمر !
لكن أغصانهن يا أسفا ... بعيدة من منال مهتصر
أصبت فى العزم ، لا الشعور ، فإن ... أدرتُ لحظى فى الشيء ، لم يدر
وان مددتُ اليدين خانهما ... عزمُ الشباب الجرىء ذى الاشر

يذعرنى الشىء كان يجذبنى ... لشـد ما أستجير بالحذر !
أحمل عبئاً من السنين فما ... عسى وراء الغايات منكدرى ؟
ولى من الذكريات حاشيةٌ ... فى حيث أمضى محشودة الزمر
فهاتها أذعر الشجون بها ... حتى أراها تطير كالشرر
لمْ لا أبيتُ الذى يقيدنى ... بما مضى وانقضى من العصر ؟
انى أرانى قد حلت وانسخت ... مع الصبى سورةٌ من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى ... – اذا رآنى – صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره ... كأننى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا ... فى العيش إلا تشبثُ الذكر
مات الفتى المازنىُّ ثم أتى ... من مازن غيرُه على الأثر

وما أحسبنى بالغت ، فقد مات « الفتى » المازنى حقاً ولم يبق منه شىء ! . وانى لأمر الآن بالمكاتب فأشيح بوجهى عنها وأغمض عينى دونها ، ويردنى الكتاب بكرهى فأتركه حيث يقع وأهمله الاسابيع والشهور ، واذا فتحته اكتفيت بأن أعبره تزجية للوقت ، ولم أبال من أى موضع بدأت ، وسيان عندى أن أقرأه من أوله الى آخره ، أو من آخره الى أوله أو أن لا أقرأه ، وقد تعاودنى الحمى القديمةُ ويتأوبنى الحنين الماضى الى الكتب ، فأدافع نفسى عنها ما استطعت ، فان عجزت وغلبت على أمرى طاوعتها على حذر وسايرتها متحفزاً ، وذهبتُ أتخير لها الكتب وأنتقيها ، ومهما يكن

من الأمر فلست الآن ذلك الذى كان كأنما يعبد منها دُمى وأصناماً ، ولقد اغتنمت أول فرصة سنحت فبعتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلاً !

ولكن الزامر يموت وأصابعه تلعب ! كما يقول المثل العامى ، وللمادة حكم لا يقوى المرء فى كل حين على مغالبته ، والنفس لاتطاوع المرء دائماً على مايريدها عليه من الخمود والتبلد ، وقد يزعج المرء أن يرى نفسه يقضى أيامه بطين الجسد وحده ، أو يموتها على الأصح ، فان من الموت أن يستحيل الانسان جثة خامدة المتقد لا ينقصها إلا الرمس ، وما لا يصلح سلوى ومتعة قد يصلح دواءً ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التبلد ويخلد الى الركود ، فلا عجب اذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين

***

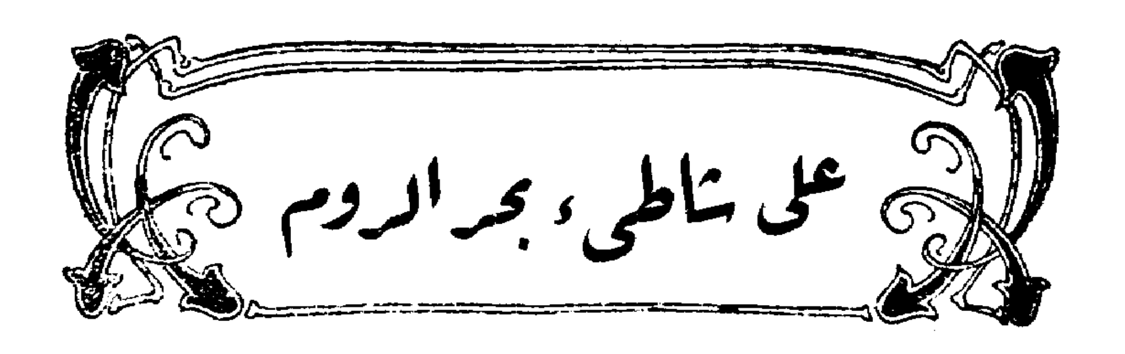
ولقد قرأت فى هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها فى الأدب والفلسفة ، على بغضى لها واستثقالى ظلها وعجزى عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدباً وفلسفة وهو ليس من ذلك لا فى كثير ولا فى قليل . واحسب القراء لا يعنيهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية . وهذا هو الذى سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولاً نستطرد فيها ومنها إلى أبواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبدأ «بحديث الاربعاء»

الذى وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولسنا ندرى بأى كتاب آخر يمكن أن نثنى فان كتاب الدكتور يضطرنا الى النظر فى امور عديدة ، والخلاف بيننا وبينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيمن كسر كتابه عليهم من مثل ابى نواس و بشار وغيرهما ، وفى العصر العباسى كله ، رأى يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظرته ، وحسبك دليلاً على بعد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبى نواس « أما ابو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً وما كان يستطيع ان يكون عذرياً،وهو الرجل الذى شك فى كل شىء ، ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد فى ذلك بحرج أو جناح ، ولم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً وانما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وانما كان يهتم باللذة و بلذة غير التى كان يهيم بها عمر ابن ابى ربيعة » .. الى ان يقول « .. ان ابا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على ان تعجب بهذا الغزل رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين الخ »

أما نحن فقد قلنا فى المقدمة التى وضعناها للجزء الثانى من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحس الناس وأعمقهم حكمة وأصحهم ادراكاً لخلال الخير وخصال الفضل — تقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رؤوسهم انكاراً فان الشعر أساسه صحة الادراك الاخلاقى والادبى ، ولست بواجد شعراً الا وفى مطاويه ادراك اخلاقى ادبى صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا

الادراك الادبى تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارئ، فيحسب انا نقصد الى اظهار الاحساس الدينى فى الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره و ينابيعه ، ولا ينبغى كذلك ان يستخلص أن الشاعر يجب أن يكون صاحب مبدأ عملى لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشاعر الانجليزى وأبو نواس وامرؤ القيس متقلبى وجوه الحياة ومظاهرها ولكن نصيبهم مع ذلك من صحة الادراك الاخلاقى والأدبى عظيم ، ولئن كان لهم معايب نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليق ان تنظر الى ما وراء ذلك . فان ابا نواس اصح مبادئ وانقى ضميراً من البحترى على كثرة ما تقرؤه للأول مما يروع و يخجل ، وكذلك امرؤ القيس افطن الى معانى الفضيلة واعظم رجولة من ابى تمام وابن المعتز ، ولم يكن الأعشى على حبه الخمر واستهتاره بها وتخلعه فيها بالرجل الناضب الفضيلة الخ» الى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك فى يناير سنة ١٩١٧ ولقد غبرت أعوام ثمانية فلم تزدنا الا اقتناعاً بهذا الرأى الذى اشرنا اليه فى ذلك الوقت اشارة من لا يحس ان المسألة تحتاج الى افاضة

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى الخلاف بين الرأيين ولتدرك ما فى المسألة من دقة وتعويص ، لا يسع المرء حيالها إلا ان يسأل الله السلامة



بين البحر والصحراء !!

أ كتب هذا الفصل على شاطىء البحر الأبيض أو بحر الروم ، وقد كتبت الذى قبله على حدود الصحراء ، وللكلام ، كما للناس ، حظوظ ، والمعانى والخواطر أرزاق ، ولقد أذكر أني كنت ذاهباً الى مصر الجديدة مع طائفة من الاصدقاء فى واحد منهم شذوذ وكان يكتب فى الترام ! وانه ليكتب كلمة « السؤدد » إذ انطفأ النور فخط « دالاً » في النور و « دالاً » فى الظلام ! ولو انى كنت اليوم فى القاهرة وفى بيتى الذى اتخذته على « تخوم العالمين » لكان الارجح فى الرأى والاقرب الى الاحتمال أن يجرى القلم بغير ما يسطره الآن ، فأن النفس كالزجاج الحساس تنطبع عليها وترتسم فيها صورُ ما يحيط بها ، ولقد كان العزم أن أقول غير ما أنا قائله ، ولكن المقادير قذفت بى الى البحر ، لا فيه والحمد لله ، فتحلل العزم ، ومُسح من اللوح ما كانت الصحراء قد نقشت عليه ، ولو خُيرت لاخترت

مقامى القديم ، ولآثرت أن أكون فى هذه الساعة التى أكتب فيها حيث كنت فى الاسبوع المنصرم : الى يمينى الصحراء ، والى يسارى المقابر ! واحدة تعلو بى ، وأخرى تهبط ، وأذا استأثرت معانى الأبد والجلال بالقلب ردته الى الدنيا ومصائر الخلق فيها هذه الأجداثُ المتلاصقة والعوالم الانسانية التى خرجت من التراب وعادت اليه وتحالت واستسرت فيه .

غير أني ألفيت نفسى جالساً على شاطىء بحر الروم أنظر اليه وأتأمل عبابه المزبد وموجه المتجدد ، والشمس تنحدر عنه وتبسط عليه أشعتها المتوهجة ، وأواذيه كقطع الجبال المتقلمة تتدفع الى الشاطىء وتستبق سيفه فيغيب بعضها فى بعض وترغى وترعد وتصفر وتهمس وترقص وتضحك وتمحو ما أخطه على الرمل ! ولا أدرى لماذا أذكرنى هذا المنظر ما أنستنيه الأيام من الاقاصيص التى كانت تسلينا وتروعنا وتعمر بها فضاء حيواتنا الصغيرة ، العجائزُ من ذوات قرابتنا أو جيراننا ، إذ يجلس الطفل منا الى إحداهن ويرهف أذنيه ويود لو صارت كل جارحة فيه مسمعاً ، وقلبه الصغير يخفق وكلما أغربت العجوز فى القصة وتبسطت فى وصف الجان والمردة أو السحرة وأسهبت فى سرد أعمالهم ، أدار هو لحظه خاسة فى المكان كالذى ينفضه بعينه أو يخشى أن يظهر له عفريت من أحد أركانه ، وراح يدنو منها ويزحف اليهـا حتى يلصق بها ، على حين كانت الفتياتُ الناهدات متكئات فى سكون على حوافى النوافذ أو

الشرفات ، ووجوههن الصبيحة ، التى كأنما غذتها الورودُ ، يضيئها القمرُ الواجم السارى فى حاشية من النجوم اليتيمة العـذراء التى ينقصها ، مثلهن ، الحبُّ !

ولم يتغير البحر عما عهدته ! كل شيء فيه كما كان فى العصر الخالى الا المدينة القائمة على ساحله فقد كانت فى بعض أيامها الخوالى تشغل مكان أثينا فلم يبق لها من سالف عزها الا البوم والسفسطائيون ! حتى آلهة الاغريق استنكفوا على مايظهر أن يتراجعوا الى الاسكندرية بعد أن ثل الزمنُ عروشهم ونفاهم وشردهم عن ملك السماء ، ولم يرض ملك السماء ذو الخصـل البيضاء أن يأوى اليهـا و يعوذ بها بعد أوليمبيا ، وآثر عليها التشرد بصاعقته الخامدة ، وضن بنفسه عليها زيوس وتجافى عنها وان كان لم يربأ بنفسه عن عزل أبيه وطرد أعمامه وعن الاستهتاك بين الغلمان الذين كان يهبط الى الارض على خلقة النسر ليخطفهم و يصعد بهم إلى ملكوته و يكايد بقبلاتهم زوجه ! وكم عذلته فى جَنميد وأنبته على مشاربته فى كأس واحدة فكان يقول لها مستهتراً لو شربت بعده من هذه الكاس لأقصرت ولم تلومى ! وشاهدى على صحة الرواية « لوسيان ! »

وما وقفت قط على هذا البحر الا أحسست انى مثله . وإلا هممت أن أنظم هذه الابيات مرة أخرى :

أنا البحر - لا كرمًا ! - إننى تكفل بالفقر لى المفضل ؟ !
ولكننى البحر ما إن له قرار وما أن له موئل

وتجلده الريح إن زمزمت ... جنوبٌ لها أو زفت شمأل
ويجـذب أمواهه كوكبٌ ... ويدفعها وهو لا يحفـل
وفى قاعه دره راسب ... ومن دونه الخطر الأهول
وتمتام صفحته ركـدةٌ ... وفى سره ثورة تشـعل
ويلتمس الشطَّ مستروحاً ... فيهزمه الرمل والجندل
أنا البحر، لـكننى غارق ... بنفسى فمن ذا عسى ينشل ؟
أصارع تياره جاهـداً ... وفى أذنى رعـده المرسل
وأومى الى الناس لو أبصروا ... وقد يخطىء العونَ من يسأل
فهل عاذر إن ونت همة ... وناء بما يحمل المثقـل ؟
وهل شاهد ؟ أن بى حاجة ... الى شاهد صادق يعدل الخ

وكأنما ضاق صدرى بما أجن وقلبي بما أثار البحر من خليط الذكريات وحركٔ من الآمال، فنهضت عن الصخرة التى كنت قاعداً عليها ودهورت هذه الابيات فى أشداقى وانطلقت أنشد الريح إياها !! ومن عسانى أنشد سواها ؟ فى أى اذن غير اذنها أفرغها أو أهمس بها ؟ فى أية نفس انسانية أجد لنفسى كفئًا يتجاوب بأصـداء عواطفى وخوالجى ؟ عند من من الخلق أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ؟

أين فى الناس وردتان تميلا ... ن معًا للنسيم من حيث جاء ؟

كما تساءلت قديمًا ؟ ثم أهبت بقصائدى التى لم أنظمها — قصائدى الجياد التى لم تندّ قط عن صدرى وان كانت تعمره ، ولم ينطلق بها لسانى وان تكن على طرفه ، والتى لولا مشيئة الاقدار لذهّبتها بأصيل

هـــذه الشمس الغاربة ونسجت منها تاجاً لرأسكِ الذى يتوسد التراب ، ولفصلت من زرقة السماء الحالية بنجوم الليل المتوامضة ثوباً متألقاً ينسجم على كتفيكِ و ينسدل الى قدميكِ !

٭٭٭

وغابت الشمس وانتشرت على الارض غياباتُ الظلام ، فعدت الى مقعدى أنظر الى الموج المشرئب ، وجاش صدرى مثله وجعلت طيوفُ الماضى تبرز من ظلامه وتخطر أمامى ثم تغيب و يلفها ما هو أظلم ، ولكن طيفاً واحداً ظل ماثلاً لعينى فى حيثما أدرتها ، ومالئاً شعابَ نفسى بالاحساس به ، ومناجياً لى من زفيف الرياح وتهزم الامواج ، وفيه وفىّ تمثل الحب المفقود والأمل الضائع ! وخامرنى هذا الخاطر وألح على حتى خلتنى جثةَ غريق ردها الموج الطاغى الى رمال الشاطىء ! ولج بي هذا الوهمُ حتى مات عن الصخرة الى الرمال ورقدت عليها وأومأت الى الامواج أن اركدى فقـــد ذهب كل شىء : انتسخ الامل وغاض معين الحب وجفت الحياة !

ثم تناولت عوداً كان ملقى الى جانبى ، وخططت به كلمات على الرمال الليلية ، غير أن الامواج طغت عليها وغسلتها وعادت بها ولم تترك لى حتى اسمى الذى رسمته فى آخرها ! فياما أوهى العود وأخون الرمال وأطغى هذه المياه المتحدرة !

بأى شىء إذن أكتب ؟؟ أأقتطع جذع شجرة بلوط وأغمسه فى بركان وأسطر به ما أريد على صفحة السماء ليبقى !؟!

* * *

ولكم وقفت من قبل على شاطئ هذا البحر بعينه ، وفى مثل هذا الأوان ، مجيلا عينى فى قبة السماء اللازوردية ، ومرسلاً لحاظى فى البحر والرمال والصخور ، وقائلاً لذوات المناقير السوداء إذ تعبث بها من الماء وتلقط ما يتقاذف منه : « أيتها الاطيار ! أن حياتك مرة مشنوءة كطعامك وشرابك ! ولشد ما أتمنى أن أعطيك مما أعطانيه الله ، وأن أنشقك ما أشمه من الازاهير والرياحين ، وأطعمك مما آكل من لحم غريض وخضر مستطابة وفاكهة شتى ، وأن أشعرك ما أشعر وأتمتع به من لذاذات الحب المتبـادل ! فأن لى لشريكة تحبنى ، وانى لأراها الآن بعين الخيال مطلة من النافذة منتظرة أوبتى الى وكرها ومشتاقة رجعتى الى عشها »

وكانت الأطيار تقضى وطرها وتذهب عنى ولا تحفل غبطتى ولا تبالى طعامى ورياحينَ أنفى وعينى ونفسى ، وما أظنها الآن الا قائلة لى « يا من كان يفاخر بغبطته ما ذا أنت اليوم ؟ ما ذا صنع الله بآمالك التى أنشأتها وربيتها واعتززت بها ، وأحلامك التى نسجها قلبك حول حياتك ؟ انظر الظلمة التى تغشى ذهنك ! وتأمل الخفافيش التى تمرح فيه ! اليس الماء الملح الذى نكرع منه وقذائف البحر التى نلتقطها أهنأ وأرغد ؟ »

فأطرق وأقول : أى والله صدقتِ ! ولشد ما أتمنى أن يكون لى منقارك الاسود !

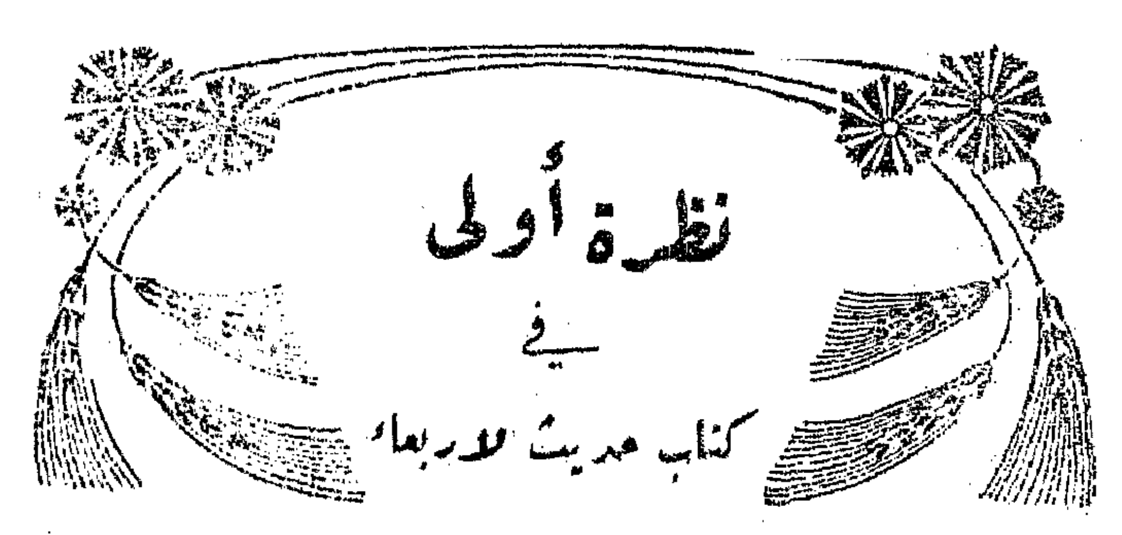
***

كلا ! صحرائى أرفق بي من هذا البحر العاتى الذى لم يتغير منه شيء ، والذى يهيج النفسَ الى ما بها ، و يمدها ، فتجيش مثله وتتدفع فيها العواطف وتتلاطم وتتزاخر ، ومن لى بالقدرة على نقل هذه الصحراء التى ألفتها وأحببتها ، معى فى حلى وترحالى ، وفرشها و بسطها حولى فى حيثما أكون من الارض ؟؟ نعم ليت هذا فى وسع انسان !! اذن لاستطعت أن اطويها كلما غادرت بقعتها ، وان الفها مع ثيابى واشيائى فى حقيبتى ، حتى اذا نزلت مكاناً واستوحشتْ نفسى أنست بأن اخرجها وانشرها امامى واتأملها وأذكر بها ليالى فيها بما اشتملت عليه من خير وشر ، وسرور وحزن ، وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها منى أو بى منها ؟ مالى وللماء الذى لا تطمئن اليه قدم ولا يثبت على حال ولا ينفك ينقلب فيه القديم جديداً ، والماضى مقبلاً ، والمقبل مدبراً ، ولا يفتأ بعضه يفنى فى بعض ؟ ؟ ولعل السبب فى حبيها وايثارها ان بى مشابه منها ! وأنى أجتلى فى انبساط رقعتها وترامى اطرافها وتقاذف ارجائهـا وجدبها وعريها وتجردها من كل زينة تحفل بها رقع الارض الاخرى ، صورةً من نفسى التى تنبسط للحياة ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتُحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيـا بها عماراً ، وعسى أن يكون كلفى بها لذكرياتى ومعاهدى فيها ، وعلى انه أى داع يستوجب ان اعلل هذه « العاطفة » التى انطوى عليها للصحراء ؟ ؟

ولما كنت مع الاسف لا استطيع ان انقلهـا معى الى حيث اذهب فانى اكر اليها راجعًا على جناح الخيال ، واراها بضـمير الفؤاد كلما خفيت عن عينى . وانى الآن لأتلفت من البحر اليها ، وأنقل عينى فى جنباتها واسرح طرفى فى ارجائها ، وحسبك من قوة شعورى بها ، ومن فرط استيلائها على خاطرى واستبدادها بنفسى ، انى نظمت هذه الابيات فى بقعة منها فيها آثار بلدة الفسطاط ، اناجى بها ليلة سهرتها بها وعهداً كان لى فيها :

أيا بلدة الفسطاط ما انت بلدة	ولـكنما طيفٌ لمؤتنف الخفض
طواك قضاء الله فى الارض حقبة	وانشرك الانسان نِقضًا الى نقض
خطوط وانقاض كما جاهد الفتى	ليحيي ذكرى وهى تمعن فى الغَمض
خرائب من حولى وفى النفس مثلها	وأهول منها، ويل بعضى من بعض!
وكم خلت نفسى بعض ادراس نؤيها	فأقررت حتى كان يفزعنى نبضى!
قضيت بها ليلاً طويلاً قصيرُه	وهل تقصر الليلات من شدة الخفض؟؟
فوا أسفا! لو ههنا كنتِ لأنثنى	قصيراً على" الليل ذو الطول والعرض !
لأوحشتنِى لما خلت منكِ رقعتى	ولم تؤنسى ذا وحشة فى حشى الارض
أآسفة للموت أم أنت يا ترى	اراحك منى الله ذو البسط والقبض ؟

فانت ترى كيف تغلب طيف الصحراء على البحر المائج ، ولا عجب ! فان نفسى ، كما قلت ، بالصحراء أشبه واليها اقرب !



كلمة فى الاسلوب أولاً . . .

لنا فى الاسلوب رأى قديم يعرفه من يعرفنا ، ذهبنا اليه فى صدر حياتنا ، وثبتنا عليه الى يومنا هذا ، ولسنا نتخذ من الثبات على رأى مفخرة ، فانه لا يخفى علينا ان هـذا « قد » يكون مرده فى بعض الاحيان الى الافلاس العقلى – ان صح هذا التعبير – أو الى ضعف الخيال ، او غير ذلك مما أترك للقارىء استقصاءه اذا شاء ، فقد علمتني الايام ان اكون أرفق بنفسى من ان ارهقها او احمل عليها اكراماً لسواد عيون القراء ! ! ولماذا لا يتكلف القارىء شيئاً من النصب ؟ ؟ ولله ، فاعلم ، معشرٌ فقراء العقول ، يفرح احدهم ان يكون له رأى ما ، فيضن به ويحرص عليه ، ولسنا من هؤلاء فيانرجوا!

وسنبسط رأينا ونعيده بأوضح مما فعلناه قديماً حين كنا نعتقد ان المسألة ادخل فى باب البديهيات من ان تحتاج الى افاضة او تحتمل اسهاباً ، فنقول ان الغرض الاول من الكتابة على العموم هو الإفهام

أونقل الخاطر من رأس الى رأس ، والخالجة ، كائنــة ما كانت ، من نفس الى نفس ، ومعلوم ان الالفاظ ليست هى المعانى وانما هى رموز لها ، تدل عليها وتشير اليها ، كما تفعل ايماءات الخرس التى يتفاهمون بهــا ونظراتهم وحركات وجوههم واصواتهم القليلة التى يستطيعون اخراجها ، ولو ان اشارات الخرس كثيرة كالالفاظ فى اللغة ، لوفت بكل غرض تعين عليــه الالفاظ ولأغنت غناءها ، وغير منكور ان الالفاظ مهما بلغت كثرتها ، محصورة ، وان المعانى على خلاف ذلك لا آخر لها ولا نهاية ، ومن هنا كان لا معدى عن العناية بانتقاء اشف الالفاظ عن المراد واحكمها اداء للمقصود ، والا كان الكلام لا خير فيه ولا طائل تحتــه ، وماذا عسي ان تكون قيمــة كلام لا يؤدى الغرض منه ولا يفهم منه قارؤه او سامعه الا كما يرى المرء فى الضباب الكثيف ؟ ؟

فالإفهام او نقل الخالجة على العموم الى نفس اخرى هو الغرض الاول من الكتابة على وجه الاجمال ولكن هــذه ليست الا درجة اولى فوقها اخرى يحاول من يسميهم الناس ادباء وشعراء ان يرقوا اليها، وهى طبقة الكتابة الفنية التى لا يكون المطلوب فيها مجرد الافهام وايلاج المعنى او الخاطر ذهنَ القارىء بل التأثير، وكما ان الانسان لم يكتف بالاصوات الكلامية وابى الا ان يغني وان يرفع عقيرته ، حين يحس الحاجة الى ذلك او الرغبة فيــه ، بتواليف صوتية تطربه وتشجيه ، وكما انه لم يسعه ان يقنع من المساكن بمــا يقيه الشمس

والرياح والامطار والضوارى ، ومن الثياب بمـا يعينه على احتمال الاجواء المختلفه ويستره ، بعد ان ارهفت الحياةُ احساسه ورقتـه ، ومن الطعام بما يسد الرمق ويدفع غائلة الجوع ويؤتيه القوة ، ومن المراكب على انواعها بما فيـه الكفاية فحسب ، نقول كما ان الانسان ابت له طبيعته التى ركبها فيه خالقه، الا ان يجاوز ما تتطلبه الضرورة القصوى فى طعامه وشرابه وملبسـه ومسكنه وفى كل شيء آخر ، كذلك لم يطق صبراً على الاكتفاء من الكتابة بمـا تُبلغ اليه من الاغراض الاولى ، وطمع فيما هو اكثر من ذلك وبغى ما وراءه فنشأ الادب

وليس من الضرورى ان يكون المرء على جانب عظيم من الثقافة والتهذيب ليطلب الفنّ فى حياته ، فان الانسان حيوان فنى ، وانك لتجد الرجل الأمى الكثيف العقل « السميك » الوجه يضفر شعر حماره ويفرقه ويرسله على صفحتى عنقه ويفضّض له لجامه ويذهّب سرجه ويركبه مترفقاً ويمشى به مختالاً وينزل عنه ويسايره وينظر اليه بادياً من بعيد ومن قريب ويربّته ويلاطفه ويمسح له وجهـه وقد تفيض نفسه سروراً بمنظره فيقبّله ! ؟ ولو انه كان لا يتخذه إلا مركباً يريحه من عناء السير وجهده ، لما كلف نفسه ان يحليه ولما عُنى بتجميل ادواته من سرج ولجام وغير ذلك ، وباراحته جهد طاقته ، وبعلفه ماوسعه الانفاق ، فهى عاطفة فنية ملكت عليه قلبه واستولت على لبه ، وكان مظهرها العنايةَ بتجميل اتانه !

ولكن الحمير ، والحمد لله، ليست كل ما يمكن ان يكون مظهراً لهذه العاطفة الفنية ! وما يستطاع فى عالم الحمير واشباهها من أبناء ابينا الشيخ آدم رحمة الله عليه وغفرانه له ! يستطاع مثله فى عوالم الكتابة والشعر والموسيقى والتصوير ، وما منا الا من يبغى ان يكون فى فنه افعل باللب وأسحرَ للقلب وأملأ للعين وأوقع فى النفس ، ولكن الكتابة لا تكون فنية من تلقاء نفسها، وانما تصير كذلك بما يحدثه المرء فيها من الصور ، وما يوفق اليه من الاحسان والتجويد ، ولا بد لذلك فيما نظن ! من صحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة والاستعداد ، فان الالفاظ موجودة ، وهى ملقاة فى طريقنا جميعاً وعلى طرف كل قلم ولسان ولو ان العبرة كانت بالالفاظ وحدها . وكان المعول على مقدار محصول المرء منها لكان اكبر الادباء هم جماعة اللغويين والحفاظ، ولكان ابن منظور والفيروزبادى مثلا شيخى ادباء العرب وشعرائهم ، كذلك الموسيقى اصوات، وليس يعيى أحداً أن يتوفر عليها ويحذقها ويمهر فى توقيعها، وقد لا يعجزه أن يصنع بضعة ألحان قليلة او كثيرة، ولكن ليس كل احد يستطيع أن يكون بيتهوفن أو فاجنر او شوبان ، والتصوير أيضاً اصباغ وألوان ، أو قل — ان شئت — ان هـذه هى مادته ووسائطه، ولكن العلم بها و بأصول الرسم وقواعده ليس حسبَ المرء ليكون مصوراً حتى من الاوساط فضلا عن الفحول من أمثال روفائيل وتيتيان ، وما لنا لا نسوق الامثال مما هو ألصق بحياتنا

اليومية ؟ خذ صناعة النجارة مثلا وقل لى لماذا لا يستطيع كل نجار أن يكون ككل نجـار ؟ ما السر فى أن واحداً يُخرج قطعةً تدخل السرور على كل نفس وتحب أن تتعلق بها وتمهل عندها كلُّ عين ، على حين يُخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علماً بالصناعةودر بةً عليها مالا يروق ولا يعجب ولا يعدو أن يكون قطعـة منجورة وأخشاباً بعضها الى بعض والسلام ؟ نريد أن نقول ان فن الكتابة ، ككل فن ، يتطلب استعداداً طبيعياً وأنه — ككل فن أيضاً — لا غنى عن الجمال فيه،وماذا يكون قولك فى رجل يزعم ان سيغنّيك ثم لايسمعك الا أصواتاً متنافرة أو ضوضاء منكرة ؟ او فى آخر يقول لك هـذه صورة فنيةفاذا نظرت اليهالم تلمح فيها ما يميزها عن النقل الفوتوغرافى؟ وكالنقل الفوتوغرافى الكتابة العادية التى لا يقصـد منها الا الى الافهام ، وكالتصوير الفنى لغة الادب

ولا يفهم أحد من كلامنا أننا نقصد الى التكلف و إثقال الكلام بالحلى والزينة ، فما يخطر لنا شىء من ذلك ، وانما نعنى ان الادب فن ، وأنه لا بد فى كل فن من الاحسان والتجويد ، ولكل امرىء طريقة هو مؤثرها أو موفقٌ اليهـا لابراز المعنى فى أحسن معرض ، وليست المزية فى التأنق والتحبير فان للجمال العاطل أيضاً موقعاً حسناً وروعةً ونضرة ، بل المزية فى ابراز المعـانى فى أحسن حلاها كيفما كانت ، وكلٌّ ميسر لما خلق له ، فواحد يوشى الكلام ويطرزه ، وثان يرسله غفلاً ، وثالث يدق لفظه و يشف حتى لتتخطاه العين

كأنما يعرض لك المعاني في ظروف من النور ، ورابع يفرغ خواطره في قوالب ملئت قوة وجمالاً وهكذا . والاحسان في كل ذلك والقدرة عليه ، ملكة لا تحصل بالمعاناة ولا تتهيأ بالدرس والتحصيل وان كان هذا مما يقويها وينميها . ولا نطيل القول . فأيما رجل زعم نفسه كاتباً أديباً وخلا كلامه من عناصر الجمال فقل له لست به

والآن ، ما رأينا في اسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟! الحق أن هذا موضوع يدق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفي عزمي أن أفيض في بيان رأيي في الاسلوب ولكنني لم أكد أسود بضعة سطور حتى الفيت نفسي أوجز وأوجز وأوصد كل باب مُوارَب في طريقي واضيق دائرة البحث ثم اذا بي اسأل نفسي ما رأيي في اسلوب الدكتور ! ؟ ولقد تقمصني والله عفريت النقد ! واني لأحس ان عينيّ قد احمرتا ، ويبلغ من احساسي بذلك او توهمي اياه اني اهم بالتطلع الى وجهي في المرآة ! ولا اكتم القراء اني صرت اؤمن بأن لكل منا شيطاناً ، واحسب شيطاني من اخبث الشياطين ، فانه يزج بي في مآزق لا ارضاها لنفسي لو كان الأمر لي ، وان على مكتبي لاكثر من خمسة عشر كتاباً استطيع ان اتناولها بما شئت من النقد وانا آمن أن ألقى اصحابها اذ كنت لا اعرفهم ، ولكن شيطاني الخبيث ظل يخايلني بكتاب الدكتور حتى اخرجته من بين اخواته وقلت له : « تعال يا هذا » واخذت اقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الاضحى ؟ ! والحق اقول انه اعجبني !

وانا القى الدكتور كل يوم واحادثه اكثر مما احادث نفسى ، ولكم قلت لنفسى وهو لا يدرى : « لا يا شيخ ! دع كتاب الدكتور الى سواه ، فان للزمالة حقاً واجب الرعاية وستخجل ان تلقاه بوجهك هذا إن نقدته » ثم لا اكاد اخلو بنفسى حتى يهمس فى اذنى ذلك العفريت اللعين : ان الادب فوق الصداقة والزمالة ، وان بروتوس كان يقول « انى احب قيصر ولكن رومية احب الىّ » وان لك كتاباً كما له كتاب فلينقده اذا احب ، وليس من شأن النقد الادبى أن يفسد ما بين الصديقين . وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتى : —

« الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكى الفؤاد جرىء القلب، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وانفته ، ويعلق بقلبك اخلاصه ووفاؤه ، ويثقل عليك احياناً اعتداده بنفسه ! ولما كان قد ألف ان يملى كتبه ورسائله ومقالاته ، فان كتبه وحديثه ، حين يجدّ ، فى مستوى واحد ، كائناً ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى احاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيات، ويندر فى غيره مثل ذلك ، ومن شأن الاملاء ان يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجملَ قصيرة فلا تطول مسافةُ ما بين اولها وآخرها : وان يغرى بالتكرير والاعادة الى حد ما ، كما هو الشأن فى الخطابة ، ومن هنا كان اسلوب الدكتور طه خطابياً ، او قل ان الصبغة الخطابية فيه اغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها اوضح ،

فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب الى القارىء كما تفعل حين تحادث جليساً لك، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير والاعادة، ويلتمس التأثير من طريق ذلك، حتى لتحس وانت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة، ويومىء بأصبعه لما وصل الى تلك الى آخر ذلك.

« والخطابة فن مختلف جداً عن فن الكتابة، واحسب انه لو كان الدكتور قد القى هذه الرسائل ولم يكتبها، لما جاءت إلا كما هى الآن، ومن شاء ان يكون منصفاً وان يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر اليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة.

« اذن أنا اخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ! ولا اراها الا خطباً مدونة. ولست اريد ان اقف حتى هنا. بل ازيد على ذلك واضيف اليه انها خلت من مزايا الفنين جميعاً. ! فاما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يمليها املاء ثم لا يعود اليها بتنقيح او تهذيب، ولو انه كان يتعهدها بعد ان يمليها بشىء من الاصلاح لخلت على الارجح من اكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعتورها من العيوب، ولكنه لا يفعل، وقد صدق فى قوله « انى ما كتبت فصلا الا وانا أعلم انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية به والنظر فيه، وانا اقدر ان سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى اذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت

لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزمًا ان استأنف العناية به والنظر فيه مستحييًا ان اقدمه الى الناس على ما فيه من نقص وحاجة الى الاصلاح ، والايام تمضى والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة اشد الاختلاف واعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائمًا بيني و بين ما كنت اريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتاب وأى الباحثين لا يشكو مثل هذا فى مثل هذه الايام التى نعيش فيها ؟ »

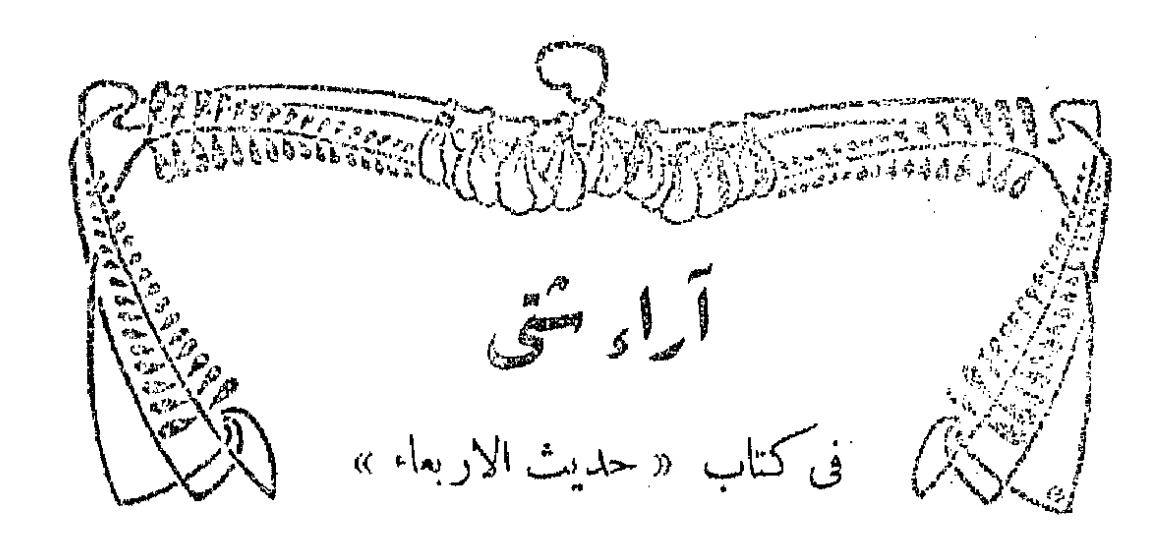
واما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليهـا على انها خطب تلقى بل على انها مقالات وفصول تقرأ،وان كانت طبيعة اعتياد الاملاء تجعلها اقرب الى الخطب منها الى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة اذا قلنا انها خالية مما لم يتحره فيهـا : اى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما ان الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرأونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرأونها ولا يسمعونه يلقيها !

« ولا شك ان اظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل ، وعندنا ان علة ذلك ليست فقط انه يملى ولا يراجع ما يملى بل الامر يرجع فى اعتقادنا الى سببين جوهريين : اولهما ان ما اصيب به فى حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع ان نقدر كل مداه ، فى الاسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفى طريقة العبارة عن معانيه واغراضه ، ولسنا نتحرج ان نذكر ذلك ،

فانه اعرف بنا من ان يشك فى عطفنا ، بل نحن أعلى به عيناً واسمى تقديراً من ان نعتقد ان به حاجة الى هذا العطف ، وليس يخفى ان المرء اذا حيل بينه و بين المرئيات ضعف اثرها فى نفسه، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى فى احضار الصورة المقصودة الى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد الا الاسهاب ومحاولة الاحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

« وثانى هذين السببين انه استاذ مدرس وقد طال عهده بذلك، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط فى الايضاح والاطناب فى الشرح، والتكرير ايضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : واعنى انها تدفع المرء عن الاغوار والاعماق، الى السطوح . و بعبارة أجلى تضطر المدرس ان يجتنب التعمق والغوص، وان يكتفى — ما وسعه الاكتفاء — بما لا عسر فى فهمه ولا عناء فى تلقيه . وتلك آفة التدريس ولولا انى اعرف كلفه به واقباله عليه وهشه له ، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحنى »

قال المازنى : وهنا صرف الله عنى السوء واذهب عنى الشيطان فوضعت القلم وانا احمد الله على ان لم يستكتبنى إلا هذا التحليل البرىء .



آراء شتى

في كتاب «حديث الاربعاء»

مما يحببني في الصحراء أن لي فيها سميرين : أحدهما رجل ساذج لا يزال على الفطرة على الرغم مما يحمل من عبء السنين على كتفيه ، ومن ثقل لحيته الكثة على خديه ! وخير ما فيه انه يسمح لي أن أمشط له شعراتها الطويلة وأفتلها ، بقرش يأخذه ؟ ! وناهيك به من منظر ليس أروح منه للصدر : منظر وجه حوله مثل الاطار من هذا الشعر المفتول ، وفوقه عمامة خضراء ضخمة تهوى الى الحاجبين وتخفى حتى الاذنين ! ولصاحبنا هذا رأى طريف في صديقنا الدكتور طه حسين ! فهو عنده من أولياء الله الصالحين ! ولكتابه في نفسه روعة وحرمة ، اذا رآه انبسطت أسارير وجهه والتمعت عيناه ثم مد اليه كلتا يديه ، كالمتسول حين تدفع اليه صحناً فيه طعام ! وتناوله مُبسملاً محركاً شفتيه بما شاء الله ، وسبحان الوهاب ! وأمسكه مقلوباً ! فان صاحبنا بفضل الله أمي ! ؟ وأخذ ينظر اليه و يُنغض رأسه المثقل بالعمامة و يبسبس بشفتيه اعجاباً ، وسر ذلك كله انه يعتقد — على مافهم

منى ! — ان الدكتور لا يكلم الناس الا يوم الاربعاء ! ! وانه يتناول فى كتابه سيرةَ والبة بن الحباب رضى الله عنه ! وحماد عجرد قدس الله سره ! ! وأبي نواس القطب الاعظم ! وقد توسل إلي مرة ان أقرأ له شيئاً من فيض الدكتور فتعمدت ان أنشده للنواسى هذه الابيات :

مالى وللعاذلات زوقن لى ترهات

سعين من كل فج يامن فى مولاتى

يأمرنني أن أخلى من راحتىّ حياتى

وذاك مالا ولالا يكون حتى الممات

والله منزل طه والطور والذاريات

الر وصاد وقاف والحشر والمرسلات

ورب هود ونون والنور والنازعات

ثم امسكتُ لان الرجل كان قد سرى فى مفاصله كحميا الخمر فجعل يدق ركبتيه بكفيه ، ويهز رأسه فى كل ناحية هزاً عنيفاً أشفقت عليه منه وخفت ان ينكسر عنقه . ومنذ ذلك الحين صار النواسى قطباً والدكتور ولياً نفعنا الله بهما . آمين ! وبلغ من اكباره لصديقنا وحسن اعتقاده فيه ان سألني ان اشفع له عنده ليعطيه عهداً ! وهاءنذا اؤدى الرسالة ! فهل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وثانى السميرين الانيسين سحلية . نعم سحلية ! واى غرابة فى ذلك ؟ الا يتخذ الناسُ الكلابَ ويصطحبونها فى غدواتهم وروحاتهم ؟ الم يكن اباؤنا المصريون القدماء يعبدون حتى القطط ؟

والسحالى كثيرة فى صحرائى هذه . ويظهر انها أحست مني الحبَّ لها والشوقَ الى الاتصال بهــا فما خرجت الى الصحراء مرة أو جلست على باب البيت الا برزت لى السحالى من الشقوق وراحت تدور حولى مطمئنة غير وجلة . وتخطر أمامي وترفع لى ذيلها بالتحيــة ؟ وبعضها مخطط الجلد منقوش الذيل على نحو ما ترى على آثار آبائنا الفراعنة . وما يدرينا ويدريك؟ لعل ههنا هيكلا قديمًا مدفونًا ولعل هذه السحالى كهنة مسحورن ! فان صح هــذا فقد تكون على هذه الذيول القصيرة أسرارٌ عويصة منقوشة لو ظفر بحلها واحد من أمثال « برستيد » لجلا لنا من أنباء القرون الخالية وحقائق الطبيعة الماكرة ما ينقب عليه أمثاله عبثًا فى فدافد الصميد !

ولا بد لحبها والفتها اياى واطمئنانها اليَّ من سر ، وأحسبه انها لمحت فىَّ مشابه منها ! أوكأنى بها تعتقد أنى كنتُ سأخلق على صورتها ثم عدل بي خالقى ، جلت حكمته ، الى ما هو أدنى وأهون . أعنى صورة الاناسى ! فان كان هــذا هكذا فلعله السبب فى أن عينى تقع على الشقوق بسرعة ، وانى كلما أمسكتِ عصًا الفيتُنى أعالج أن أغرسهــا فى الارض أو أن أحفر بها فى جوفها ، ولكن فكرت فى هذا فتمنيت أن يتيح الله لنا عالما ذكيًا لبقًا يثبت تناسخ الارواح ! اذن لكان هذا أبسط حل لهذه المعضلة !

وأنا ألاحظها وأجعلها قيــد عينى كلما ذهبت تنساب على الرمال أمامى . ولقد خيل لى يومًا ، وأنا أرامق واحدة منها ، انها أطرقت قليلا

ثم رفعت رأسها الدقيق وحملقت فى وجهى بعينين خلتهما عينى كاهن مسحور ، وقالت لى بصوت أجش يفيض عطفاً ومرثية « مساكين أبناء آدم ! ما أشد جهلكم وأقل استغناءكم عن الكتب . أو ليس هذا الذى بيمينك كتاباً ؟ » قلت « نعم غير انى لا أقرأه لا تعلم منه بل لأنقده » فابتسمت كالساخرة وقالت « وما أشد غروركم أيضاً ! » ثم أمالت رأسها وأغمضت احدى عينيها وسألتنى بلهجة مبطنة بالزراية « وأى كتاب تقرأ ؟ حدثنى » فقلت « هذا كتاب وضعه من يدعى الدكتور طه حسين فى بعض من كانوا يدعون أبا نواس وبشارا والحسين بن الضحاك وكلهم ، فيما أرى من هيئتك ، مغمور خامل الذكر لم ينتشر به الصوت الى عالمك ! » فدارت حول نفسها من فرط الضجر دورتين أو ثلاثاً ثم لفت ذيلها حتى آدنته من رأسها ولبثت هنيهة تتأمل نقوشه الخفية السر ، ثم التفتت الىّ وقالت « وما دكتورك هذا ؟ » قلت « استاذ فى الجامعة يدرس الادب والتاريخ او كليهما أو لا أدرى ماذا ! » فبدا عليها الاهتمام وتركت ذيلها يعود فيمتد خلفها على مهل ، وقالت « أدب ؟ ؟ وماذا كانت تخسر الدنيا لولم يظهر فيها ادباؤكم هؤلاء ؟ بل لو لم تخلقوا فيها يا ابناء آدم ؟ أكانت تكف الارض عن الدوران ؟ ام كانت تستوحش خلوها منكم رائحين غادين فوق ظهرها ومن جثثكم المرمة فى جوفها ؟ ودكتورك هذا الذى يدرس فى الجامعة هل يستمع اليه احد » فقهقهتُ ، فغيظت وابتدرتني بهذا التعنيف « ماذا يضحكك يا هذا ؟ » فقلت « معذرة سيدتى ان كنت

اسأت الادب ! نعم يذهب اليه الظماء الى المعرفة ليكرعوا من معين علمه وادبه . ولا نكران انه ليس سوى انسان ، لا سحلية ، ولكنه يعرف بعض الشيء . . . » فقاطعتنى بقولها « اجبني ماذا تخسر الدنيا او تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل ماعندكم من الكتب ؟ » فحزّ فى نفسى هذا التحقير الذى تلج فيه ونهضت عن كرسىّ وقلت « انى احتج يا سيدتى على هذه اللهجة واؤكد لك . . . »

* * *

« اتكلم نفسك ؟ »

فالتفت مذعوراً الى مصدر الصوت فاذا قريب لى ينظر الى قلقًا وقد زوى ما بين عينيه ! فعدت الى كرسى وعالجت نفسى حتى ثابت الى ثم شرعت اطمئنه ولكن هيهات . . . !!

* * *

وقد كففت بعد ذلك عن محادثة السحالى العالمة واعتضت منها محادثة القراء . . . !! غير ان اذنى ما انفكت تطن بقولها « ماذا تخسر الدنيا او تخسرون انتم لو فقدتم هــذا الكتاب بل كل ما عندكم من الكتب ؟ » وانى لاردد سؤالها هذا الآن واعيده على سمعى و يؤلمني ويكوى غرورى الجنسى وكبريائي النوعى ان يكون الجواب سلبًا قاطعًا ونفيًا جازمًا ، اى لاشيء ! فأما الدنيا فلا تخسر شيئًا على التحقيق . واما الناس فهبهم كأجهل ما كانوا او كأكمل ما يمكن ان يكونوا علمًا ، فما ارى هذا يقدم او ذاك يؤخر . اليس الفناء الشامل هو المآل

على كل حال ؛ أجيال تمضى وأخرى تأتى ، كالخيالات التى تتراءى للحالم، حتى اذا استيقظ المرء اختفت ! كذلك الطبيعة تحلم بنا الآن ثم فى الصباح يخلو رأسها من اشباحنا ! ! ولعن الله السحالى فقد سودت بسؤالها عيشى حتى لقد صرت كما اقول :

أرى رونق الحسناء فى ميعة الصبا فيوضع بى شؤمُ الخيال و يعنق
و يُشهدنيها فى التراب مرمةً وقد غالها غولُ الحمام الموفق !

* * *

ونطبق سؤال السحلية على كتاب الدكتور ونسأل نحن بدورنا : هل فيه من جديد ؟ هل زادت معارفنا به قليلا أو كثيراً ؟ أكنا نكون أجهل مما نحن الآن لو لم يكتبه ! واذكر ان الأدب العربى ليس إلا بعض الأدب العالمى ، وان الدكتور لم يتناول فى كتابه سوى جانب واحد من فترة من عصر من عصور الأدب العربى . والجواب على هذه الاسئلة التى أوحت بها الى السحلية اللعينة ، نعم ولا . وأعنى بذلك ان الدكتور لم يزدنا علماً بالعصر العباسى ولم يضف الى ما نعرفه عنه جديداً ، فلو لم يكتب هذه المقالات لما فاتنا شىء يذكر من هذه الناحية . ولكن هذه المقالات كشفت عن جانب من جوانب نفسه هو ، لم يكن يتأتى لنا العلم به والاطلاع عليه لو فقدنا هذه المقالات . وهذا هو الذى ربحناه . والواقع اننا جميعاً نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونكشف لهم عن دخائلها حين نكتب مؤرخين أو

مترجمين أو متفلسفين أو ناقدين أو غير ذلك . واحسبنى لم اعد الحقيقةَ حين قلت — والشاهد فى البيت الخامس :

يمل الفتى طولَ الحياة ولا يُرى
على الموت إلا ساخطًا جدَّ واجد

ويطلب ، اما مات ، أن ينصبوا له
معـالم تستجدى دموع الخرائد

وتُبدى جراحاتِ الردى وكلومَه
وتستمنح الأحياء ذكر البوائد

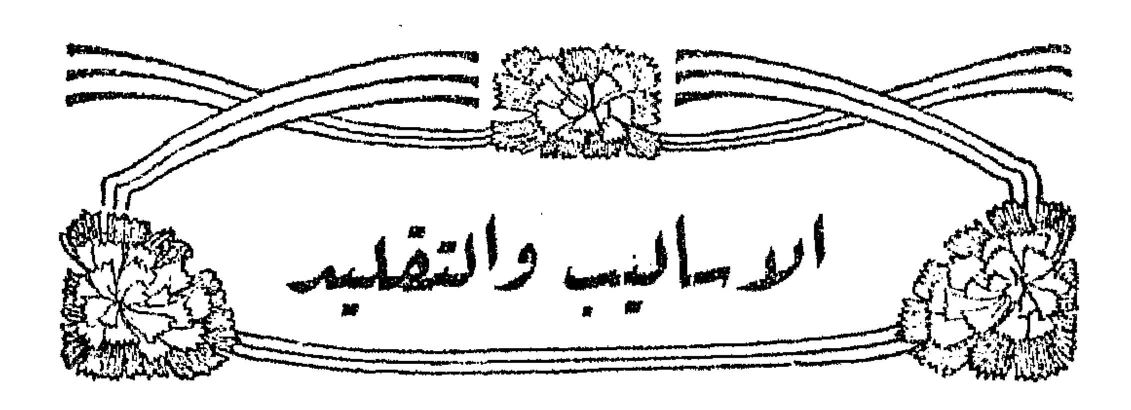
وينسج بردَ الشعر مسهرُ جفنه
ليسبى حريم الذكر حر القصائد

بلى ، ذاك دأب الناس ، كلٌّ بنفسه
يعرفنا ، من صادر بعد وارد !

وديدنهم حتى تجف حياتنـا
وتخلع ديباج الربيع المعـاود

ويسكن نبض الارض مثل قطينها
وتعلق اسباب الردى بالفراقد !

ولا يحسب أحد ان من الخسارة ان يعرفنا المرء بنفسه ولا يعرفنا بسواه . كلا ! فهذا مكسب كبير وربح طائل .



الاساليب والتقليد

بسم الله أبتدىء وعليه اتوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز علىّ أن انازله واقارعه ، فانى أنطوى له — او صرت على الأصح أنطوى له — على الحب والاحترام . وليتنى ما عرفته ولا خالطته ! اذن لبقيت يدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ،أو لا تضيره وتوهى عظامها، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالى الى صاحب الكتاب أو يبرز لى وجهه من كل صفحة فيه ، كأنما ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء و بتأثير الجو كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعه الى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر : هذا ما رضيت لكم ! وما هو بسفر او كتاب « كما أتصور السفر والكتاب » وانما هى مباحث متفرقة « لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم » و بالغ فى هذا الضرب من

التواضع المقلوب، فأعلن الى الناس انه لم يعن بهذه المباحث «العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً» وانه يعلم « انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية والنظر » كأنما أراد أن يقول : لستم أهلا للعناية وان فى وسعى ان اؤلف خيراً من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة وهم – فلا تنس !– جمهور القراء فى مصر ؟ كلا يا سيدى : « لم يكن بد من ان يتجنب (الدكتور) التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » ! ولكم وددت انا — انا المازنى — حين قرأت هذه المقدمة التي صدر بها الدكتور كتابه ، وقبل ان يصل حائك الاقدار ما بين اسبابي واسبابه ، ان اعلمه احترام القراء ! ولكنى خالطته فأحببته مع الأسف ! وانى لأتمرد احياناً على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا، ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يحابي الاصدقاء ولا يجامل الاوداء ، فارفع بالفأس كلتا يدي واشب عن الأرض، واهم بالضربة تفلق اليافوخ، فيطالعنى وجهه الساكن وجبينه المشرق ، وهو جالس الىّ يحادثني ويقاسمني ما اعانيه من المضض ويحمل عني شر شطريه، فتهى قبضتى وتفلت الفأس، وتهوى ذراعاى الى جانبي وتتملكني عاطفة فنية تجعلنى اقول « خسارة ! نعم من الخسارة ان احطم هذا الرأس ! فان فى الجبين لالتماعاً وفى العظام قوة، وفى التركيب متانة — وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتنى كنت مصوراً ! اذن لأنطقت هذا

الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه ؟ » وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أراني امسح له جبينه وألاطفه وأربتـه ! واني لأتهم من نفسي هذا ولـكن ما حيلتي ؟ لست أرى لى خياراً : هذه هى الأسلحة ملقاة امامى . تتخطى يدى من بينها كل درع مسرّدة تتكسر عليها النصال ولا تنتقى إلا درعًا من الـكتان لا تقى ولا تغنى ! وتدع المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبه . لا بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح !

وما أظن بالقارىء الا أنه يقول وهو يتلو هـذه السطور . وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور ؟ ألم تصدّر « حصاد هشيمك » بكلمة قال كل من قرأها انها زراية على القراء وتضاحك بهم ؟ وجوابى كلا بالخط الثلث ! و براءة الى الله من هذا الوهم الذى ركب بعض الناس ! وهل من الزراية والتهكم أن أقول ان هــذا أقصى ما وسعه جهدى فان رضى عنـه القراء فبها ولله الحمد والا فما لا يصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟ وفرق ولا شك بين أن أصارح القراء بأن هذا كل ما فى الطوق و بين أن أزعمنى قادراً على خير منه ! فأنا كما ترى أصدق تواضعاً من الدكتور : هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلاً لان يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » و ينشر لهم كتاباً « شديدالنقص محتاجاً الى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر فى هؤلاء القراء الذكاء والفطنـة

فأسبقهم الى الحكم على كتابي على حد قول القائل بيدى لا بيد عمرو!

* * *

ولم يكذب الدكتور حين قال فى هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق على لنفسى وللادب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأنى ما كتبت منه (كذا) فصلا الا وأنا اعلم انه شديد النقص« محتاج» الى استئناف العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق ذلك بأن الايام كانت تحول دائما بينه و بين ما كان يريد « من تجديد العناية واستئناف النظر » وقد احسنت الايام بما حالت دون مرامه ، ولو انها اتاحت له ان ينقح ما يكتب و يتعقبه بالاصلاح ، لما تركت لنا معاشر النقاد من عمل نبيض به وجوهنا ونسوغ به طول السنتنا . فهل يسمح لنا صديقنا ان ننوب نحن عنه فى تجديد العناية واستئناف النظر ؟؟ و يسوءنا اننا لا نحب ان نحاكى اسلوبه ونضرب على قالبه فى ارسال الكلام . وليس ذلك لان اسلوبه الكتابى شاق يتعذر تقليده ، بل لان لنا اسلوبنا الخاص ومن فضل الله علينا ان ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر أسلوبه ، مامعناه انه لا يطمع من الشهرة فى أكثر مما وفق اليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به ويحتذون مثاله فى طريقة الآداء وفى تأليف الكلام ، وعندى ان الاساليب التى يسهل محاكاتها هى أخلى الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التى يختلف

بها كاتبٌ عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هى التى لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها . وتقريباً لذلك من أذهان القراء نقول لهم أن المتنبي مثلاً ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون أن يحتاج القارىء أو السامع — اذا كان قد حصّل شيئاً من الادب — الى النص على ان هذا البيت أو الابيات للمتنبى . وما من مطلع على الآداب الغربيــة يعييه أن يفطن إلى أسلوب كارليل الانجليزى مثلا ولو سيق غفلاً من كل نسبة . والآن فلنسأل : من الذى استطاع أن يقلد المتنبى أو كارليل ؟ اجمع أدباء الدنيا وشعراءها قاطبة وكلفهم ان ينظموا لك قصيدة على غرار المتنبي او يكتبوا فصلا على مثال كارليل يعجزوا جميعاً ويبوءوا بالفشل ! ذلك لان الاسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة وطريقته فى تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات اوكدَ واعمق ، كانت المحاكاة اشق والاخفاق فيها اقرب ، فهى لا تسهل الا حيث يكون الاسلوب خالياً من الخصائص التى ترجع فى مرد امرها الى النفس وما رُكبت عليه وانفردت به . واليك مثالا من عالم الموسيقى : ونعني به هــذه الاغانى الشائعة على الالسن والتى يسمونها « الطقاطيق » : يوقعها الرجال والنساء والغلمان والاطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتون الا من حيث حلاوة الصوت وصلاحه للغناء. ومعلوم ان الذين وضعوا هذه الالحان

وصنعوا فيها هـذه الاصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون اصواتًا مثلها فى كلام غير كلامها ، اى يقلدونها ولا يجدون فى ذلك عسراً ، اما الادوار الكبرى والقطع التى هى ادخل فى باب الفن من الطقاطيق ، والتى يشتهر بها واضعوها ولا تُذكر فى الاغلب والاعم ، الامقرونة – على الاقل فى الذهن – بأسماء اصحابها ، فتقول اما هذه فما اقل مقلديهـا بل حفاظها ! وانت قد تستطيع ان تصنع بركة او بحيرة تشرع فيها على الزوارق ، وتأتى اليها بشتى الاسماك ، وتجعل لحوافيها صخوراً ، وتنثر على سيفها الحصى ، وتفرش الارض على مستدارها بالرمال ، ولكن ايدخل فى مقدورك ان تحفر لنفسك فيماشئت من ارض الله الفضاء بحراً اعظم طامى الموج ، متدافع الاواذى ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذى فى السماء؟؟

فليس من دواعى الفخر ان يكثر مقلدوك وان يكونوا موفّقين فى الحكاية . ولعمرى ماذا يبقى من المرء اذا كان يكتب على أسلوب اذا رأيت تقليده حسبته الأصل ؟ ألا يكون الانسان فى هذه الحالة عبارة عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك انه يكون انسانًا عاديًا من الأوساط ، امثاله كثيرون، إذ كان لا ينفرد بشىء يرتفع به عن مستواهم

ومن حسن حظ الدكتور ان له مقلدين ولكنهم لا يوفقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتذائه ، لأن اسلوبه ليس خاليًا من الخصائص وان تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه .

وأعرف اناساً يخلطون بين كلامه وكلام سواه غير أن هذا مرجعه الى ضعف التمييز وعدم التفطن الى الخصائص الدقيقة التى لا تأخذها العين أول ما تأخذ

***

لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ولكن الدكتور الذى أثار نقعها بلا مسوغ يبدىء فيها ويعيد ، ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى اتقان القول واجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً وقسمت الادباء على اختلاف فنونهم الأدبيــة أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط اولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفيد من خلاصــة ما ترك القدماء ويضيف اليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف »

وهو كما ترى — أو فيما أرى أنا — كلام يحتــاج الى ايضاح فلنستزد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً

على الأدب وحده ... لأن الحيــاة الانسانية تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى ، ان لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهى أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا وبأن حياتنا الآن ، ان اشبهت حياتنا امس من وجه أو وجهين ، فهى تغايرها من وجوه .

« واذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة اليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة اليه ، مترددون فى ميولنا واهوائنا وآرائنا فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألاّ يكون الا ابن أمسه ، والا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التى لا نعرف لها أولاً ولا آخراً ، وهى سلسلة الحيــاة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر الا فى شىء واحد ، هو ان يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، الى الامام ، دون أن يقف فيفكر فى حاضره ، أو أن يلتفت فينظر الى ماضيه . ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القــديم المسرفين فى نصره ، وأشياع الجديد الغلاة فى

التشيع له . يشتد هذا الخلاف و يعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء ، وانما هى محققة لهذين الاصلين تحقيقاً طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما و يظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الامة والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم و بين الحديث » اه

والآن أفهمت ؟ كلا ؟ ؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا الى أعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على أن أذكرنا تلك السراديب الرومانية التى تذهب فى كل اتجاه والتى احتفرتها أيدى الناس بحثاً عما لا ندرى ! وخير لنا أن ندع الدكتور وشأنه فى هذه السراديب ولنرفض أن ننحدر وراءه الى هذا الظلام الدامس الذى أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة و بين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه « البقاء والاستحالة » نسأل الله له السلامة !

المسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعضُ المعاصرين المثلَ الأعلى ، وقد يكون كذلك أو لا يكون ، و يتوهمون انهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وانهم اذا استعاروا أجنحة النسور حلقوا مثلها فى سماء الحياة ، وان فى وسعهم أن يوفقوا بين روح

العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلي ومثل الدكتور لا يعنون أنفسهم بهذا التوفيق ولا يتحرون الا شيئاً واحداً هو الابانة عما في نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يعنى بأن يدرس براعات الادب القديم ، وفريق لا يكترث لذلك . فالأمر كما ترى لا يحتاج الى كل هذه الفلسفة التى حصب الدكتور بها وجوهنا فى فاتحة كتابه .

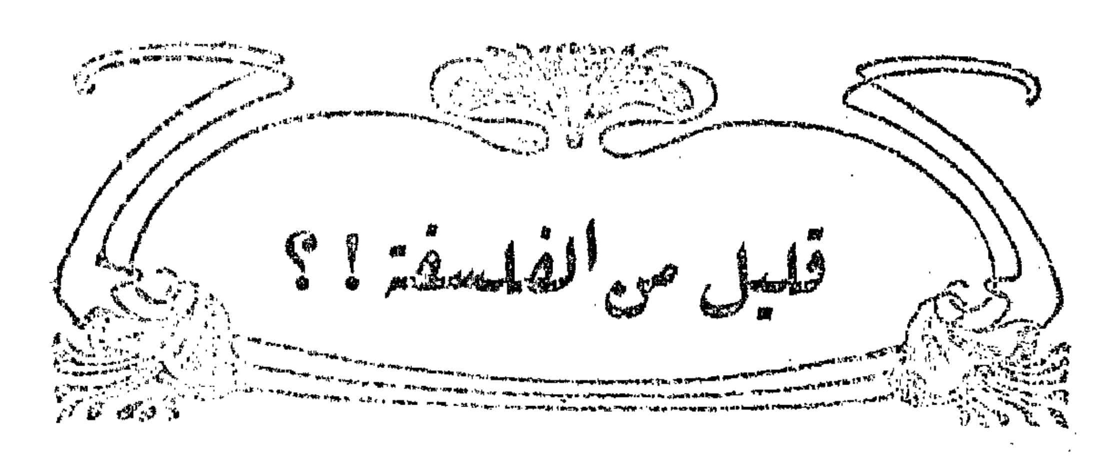
وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول ان مقلدى القدماء لا يقلدونهم ولا ينسجون إلا على منوال نفوسهم . وان امكان النجاح فى هذه المحاكاة مستحيل ، وانهم حين يكتبون لا يحتذون مثالاً قديماً ، وانهم واهمون إذ يظنون انهم يطبعون على غرار السلف . وان السبب بسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرء أساليبَ تفكير عفى عليها الزمن ، وأن ينظر الى الحياة من وجهة غيّرها كر الايام ، وأن يتخيل جواً لا عهد له به ، وبيئةً ووراثة انقطع فعلهما فى هذه الايام . ولو أن رجلاً من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر الى الماضى ويجيء بكلام لا يختلف فى شيء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم لكان فى نظرى أعظم من ذلك العربى ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذى يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها : ذلك انى أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الارضية فى هذا العصر رجلاً يكتب كالعرب . وهذا

صادق افندى الرافعى زعيم من نسميهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أى عربى كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وانما هو مقام محاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الاحمر » لم أتخيرها ولكن وقعت عينى عليها اتفاقاً ، ويجدر بى قبل أن أنقلها أن أعلن انى لم أفهمها ! وهى قوله « قد يتغير الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت الأول و يا أنت الثانى ، ولكنى عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ؟ ! ؟ ! »

ولست آتى بجديد حين أقول ان من المستحيل ان يرجع أحد بنفسه الى عهد العرب لأن الحياة لا سبيل فيها الى هذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك ان واحداً يركب عقله و يتعثر به فى الطريق الذى تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجليه أو مطية أخرى و يسير فى طليعة الركب أو بين سواده

وان الكتاب ليحسنون جداً الى الأدب اذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التى أثاروها حول القديم والجديد فان الزمن ماض لا ينقّل رجلاً ، فمن سايره فهو معه ، ومن شاء أن يتكلف المحال فسينقطع عن القافلة وامره الى الله



قليل من الفلسفة ! ؟

نستأذن القراء الكرام فى قليل من الفلسفة . ولهم علينا عهد الله ألا نعود الى ذلك . لا لان الفلسفة مما يعسر عليهم « هضمها » ولا لان « الصحف السيارة لا تصلح لمثل هـذا » كما يزعم صديقنا الدكتور طه حسين فى مقدمة كتابه الذى ملأته لكثرة ما ذكرته ، بل لأنى لا أحسن هـذا الضرب من الكلام . وما لنا لا نتفلسف وقد تفلسف الدكتور ؟ أترى ما تيسر له يعجزنا ؟ ألا يدخل فى طوقنا كما دخل فى طوقه أن نسوق كلاماً يستحى القارىء أن يقول لا أفهمه ؟ وما دام فى الدنيا من يشق عليهم أن يعترفوا بالعجز عن فهم ما يزعمه أصحابه فلسفة فان الدنيا بخير يا سيدى ولنتفلسف فيها نحن أيضاً ! وأحر بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى اذا لم يفهموها كما هو المنتظر! ذلك انها دفاع عنهم ! فما أطبينا والله ! فى سبيلهم نتجشم الغوصَ فى درك اللجة الفلسفية ، ومن أجلهم نقامس حيتانها المخوفة ونتعرض لان يُطبق علينا أحدُها فكه الرهيبَ ويبتلعنا بكل ما ننطوى عليـه من قدرة وحذلقة ، أو لأن نغرق

ونرسب فى النهاية الى جانب الدر الذى لا نعود به ، وبين الحصى والطين والحجارة التى نرتطم فيها . ولن ينفعنا القراء حينئذ وقانا الله شر خدمتهم !

ويغريني باعتساف الفلسفة ومحاولة الركض بين وعورها ما أشرت اليه فى مقالى السابق وأسلفت عليه القول من زراية دكتورنا على القراء واعتباره اياهم غير أهل لان يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى اذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » لا ياصديقى الدكتور. عفوك ! لو وسعك هذا الذى تقول انك تجنبه لما أحجمت عنه ولا صدك الاشفاقُ على رؤوس القراء والترفقُ بأدمغتهم . ولو كان فى جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولاحتلت وتلطفت وألححت فى عرضه ولرفعته قبلنا من كل ناحية

وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فاننا جميعاً مع الاسف هذا الدكتور ، وما منا الا من يطيب له أن يدعى انه قادر على خير مما يصنع ، وكما أن الفقير يتظاهر بالثراء ويحب أن يوهم الناس انه أغنى مما يدل عليه ملبسه ومسكنه وطعامه وسائر ما عسى أن يبدو لهم منه ، ويستنكف أن يعترف بخصاصته ورقة حاله ، كذلك نحن معاشر الكتاب : يزعم كل معدم منا أو من لا يملك الا فكرة واحدة انه غنى العقل ، وربما أغرق فى الدعوى فقال انه مليونير ! والناس فى العادة لا يخفى عليهم الغنى المادى ولا يعييهم أن يقفوا

على حقيقة الدعوى فيه ونصيبها من الصحة ، ومن هنا ترى المفلسين لا يزالون يكبحون جماح دعواهم ليجعلوها أقرب الى العقل وأحرى بالتصديق ، اذ كان لا يقبل ممن يمشى فى أسمال بالية ويسكن كوخا حقيراً ان يقول ان المال عنـدى قناطير مقنطرة ، ولكنه لا يدفع السامعين الى الانكار والجزم بكذبه اذا ادعى انه ادخر مائة جنيه . فان مائه جنيه لا تنافى كل المنافاة ما عليه ظاهرُ حاله . أما غنى العقل أو الفكر فما الحيلة فى دعواه ؟ ما طريقـة حسابه والحكم عليه ؟ انه غنى يدعيه لا الكتاب والشعراء والعلماء وحدهم — ولو اقتصر الامر عليهم لهان الخطب وسهل الوزن والتقدير — بل كل من له راس بين كتفيه . وهبك عرفت مافى رأسه وأحصيته فقد بقي أن تعرف أهو من ماله الخاص أم مما اقترضه من سواه أو ممـا يسترىبه؟ ؟ فمجال الدعوى كما ترى واسع رحيب ، والحدود هنـا غير قائمة ، وكل ذى دعوى يرى من الاوفق له أن يغض عن دعاوى سواه ليغضوا عنه وليتبادلوا الموافقة ويتقارضوا التأييد !

وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء . نكتب لهم طلباً لاعجابهم والتماساً لثنائهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت بينهم وتأبى لنا طباعنا المنكرة الا أن نجعـل الاستخفاف بهم وسيلتنا الى اكتساب ذلك : يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فاذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق وانهـا لا تحتمل الا الخسيس الرخيص من الاصناف ، ويُصفى ثان ويغدو كالدجاجة انقطع بيضها فيكبر عليه

أن يقول فرغ رأسى ، و يروح يقول ان الارض غير صالحة للبذر ومن الحمق أن أحاول زرع أرض ظهرها صفوان ، وقد علم ان العيب عيبه لاعيب التربة ، وان مالا وجود له الا فى رأسه — ان كان فيه شيء — هو فى حكم المعدوم ، وانه لا وجود لخاطر على الحقيقة الااذا ترجمه الجمهور عن صاحبه ، ويجيء ثالث بكلام لا يكتبه بالقلم كما يكتب الناس ، بل بالبرجل كما يقول صديقنا الاستاذ العقاد فى وصف واحد من هؤلاء ، فاذا قلت له انك تكتب مالا يفهم استشاط وسب الشمس والقمر وقال ان منزلتى أن اكتب ومنزلتكم أن لا تفهموا ، اذ كنت أختلف عنكم فى الحس وفى التفكير وفى الحكم على الاشياء ، وأصدر فيما اكتب عن الالهام الذى لاينزل على العامة وأشباهها ! وهكذا . .

والآن فلنتفلسف ! وفلسفتنا هذه جديدة الا أنها مستمدة من سوانا ، كالحياة نفسها ، والحياة ابداً جديدة غيران حاضرها متسلسل من ماضيها ومرتبط به . و يسرنى ان اعترف فى مستهل فلسفتى التى ارجو ان اوفق الى بسطها وايضاحها انى مدين على الاكثر لصديقي الاستاذ العقاد وان ما كتبه فى « فلسفة الجمال والحب » وذهب اليه فى هذا البحث من ان « الجمال هو الحرية » كان فتحاً مبيناً فى عالم الفلسفة وان قوله فى مقدمة كتابه[1] « ان السكون كله والحياة (وهى اعم من السكون فى نظرى) والفن ومناظر الارض والسماء — كل اولئك مظاهر للتآلف اوللتنازع بين الحرية والضرورة ، او بين الجمال

(١) مطالعات فى الكتب والحياة

والمنفعة ، او بين الروح والمادة ، او بين افراح الفن واوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية ؟ وهذا الائتلاف هو دستور الفن الالهى المحيط بكل شىء وهو فلسفة الفلسفات فى هذا الوجود»

أقول أن قوله هذا على الخصوص هو الذى فتح لى الابواب المغلقة التى طالما أوهيت رأسى بنطحها .

نعم هذا هو دستور الفن الالهى : قوى مطلقة تحكمها وتنظمها قوانين ، وبغير ذلك لا نستطيع ، ولو فاضت أرواحنا من شدة التفكير ، أن نعلل ما نلمحه من مظاهر التناقض فى الحياة ، وهذه الفقرة بعينها من مقدمة العقاد التى أعلن الدكتور طه انه لم يفهمها ، هى مفتاحى الذى سأديره فيما سأتناوله الآن . واذ كان لكل شيخ طريقته الخاصة به فسأبدأ بحثى من حيث اريد أنا لا من هذه الرباوة العالية التى أشرف العقاد من قمتها على الحياة . وفى مرجوى أن آخذ بيد القارىء وأن أصعد معه درجة بعد درجة حتى نبلغ جميعاً هذه القمة

بأيهما يحس الآدمى أولاً : بنفسه أم بغيره ؟ أظن أنه لا شك فى أن أول ما يحس به المرء بعد أن يأتى الى هذه الدنيا ويشعر بشىء فيها ، هو نفسه . وفى وسع كل امرىء أن يتحقق من ذلك ويقطع الشك فيه باليقين ، وذلك بأن يلاحظ طفله لأول عهده بالحياة ، فان كل طفل يظل زمناً غافلاً عن كل ما يحيط به من الاشياء

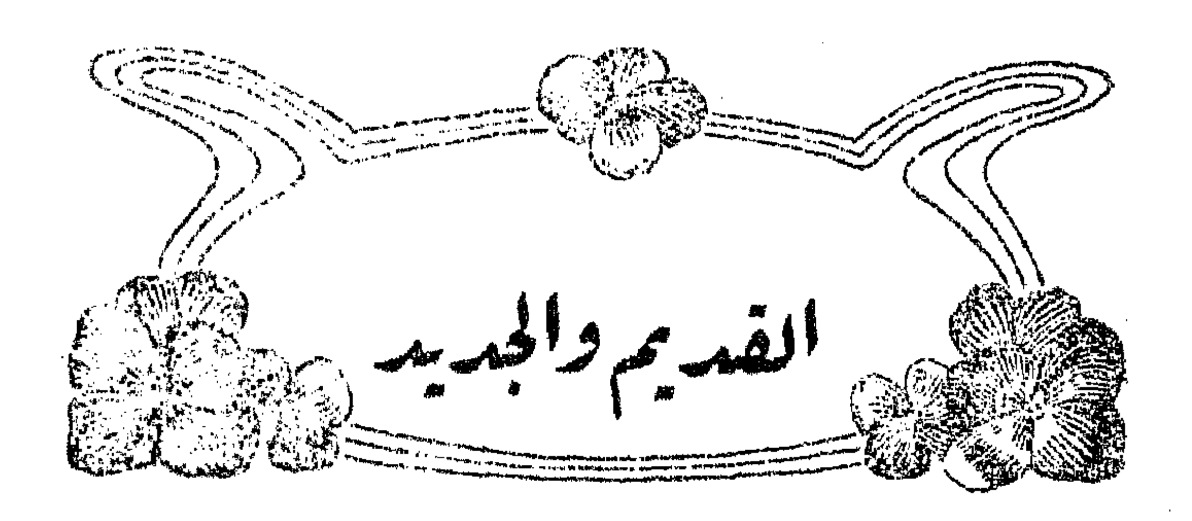
والناس ، حتى أبويه بل حتى امه أو ظئره . وظاهر ان احساسه بوجود غيره لا يكون إلا على الأيام ، أى شيئًا فشيئًا ، ولا ينمو ويقوى إلا تبعًا لنمو ادراكه لما بينه وبين ما حوله من الناس والأشياء من الصلات . ومعنى ذلك أن الاحساس بالنفس أو بالفردية سابق للاحساس بالغير وناشيء قبله . ولك أن تقول بعبارة أخرى أن الغرائز الاجتماعية مكتسبة الى حد كبير . وليست كذلك الغريزة الفردية . أضف الى ذلك أن الفرد وجد قبل النوع

فالفردية هى السمة الأولى التى تبديها الحياة أو تبدو معها . وثم سمة أخرى لاخفاء بها هى أنه لا سبيل الى الخلط بين اثنين وان التطابق التام حتى بين التوأمين لا وجود له ، وبعبارة أخرى ، ليس فى الحياة فردان يمكن أن تصفهما بأنهما مترادفان كما تصف بعض الالفاظ تساهلاً فى التعبير . نريد أن نقول أنه لا آخر للتنوع فى صور الحياة . أى أن الحياة مطلقة الحرية فى انتقاء الصور التى تبدو فيها وتتشكل بها وان سبيل الحياة أن تخرج أشكالاً متنوعة وانها لا تتقيد في ذلك بقالب معين ولا تلتزم فيه ما نلتزم نحن مثلاً فى الشعر أحيانًا من الوزن أو القافية . ولا يتعجل القاريء فيعترض فما نريد أن نذهب الى أبعد من أن « الاصل » هو الحرية المطلقة فى اختيار الصور والاشكال . ولو أن هذا لم يكن كذلك أى لو أن الحياة مقيدة بصورة أو صور معينة لا تخرج عنها لكان تعاقب الاحياء تكراراً سخيفًا لا معنى له . وتصور أن الناس مثلاً يخلقون

على طراز واحد لا يتغير ويصبون فى قالب لا يتعدد ! ألا يكون كل جيل فى هذه الحالة صورة معادة لكل جيل سبقه ؟ ؟ نعم بلا شك ! وماذا يكون معنى هذا التكرار المستمر ؟ لا معنى على الاطلاق ! وأحر بالحياة أن تكون إذن مسرفة سفيهة مملة . وما أحقها حينئذ بأن يحجر عليها من يستطيع ! ؟

كلا ! ليس فى الحياة اسراف ولا املال لأنه لا تكرار هنالك ولا اعادة ، وكل فرد يخرج من يدى الحياة يكون الأصل فيه أنه نمط قائم بذاته مختلف عما عداه وحريتها فى ذلك مطلقة لا نهاية لها ولا حد . ولكن — نعم « ولكن » — لا بد من القيد الذى تنتظم به الحرية وتصان من التبدد والانحلال المفضيين الى العدم : وهذا القيد هو ان الناس لا يخلقون فى هذه الايام كما خلق أولهم من الطين مباشرة أو من المواد الأولية . وانما يأتى الانسان من انسان مثله وتخرج صورة الحياة الجديدة من صورة سابقة أى من أبوين . وهذا الجهاز الذى تمر به مادة المخلوق الجديد يطبعه بطابعه ويترك اثره فيه فيجيء الجديد مشابهاً للقديم وإذ كان هذا هكذا فكل فرد يأتى الى دنيانا يكون نتيجة عاملين : حرية الاختيار التى تتوخاها الحياة فى صورها ، والوراثة الناتجة من التناسل والتى ترمى الى الاحتفاظ بالصورة القديمة والى اعادتها ، وهذا هو علة الاختلاف من ناحية والتشابه من ناحية أخرى . والمسألة كما ترى بسيطة سهلة المساغ وليس فيها تعويض بل لا جديد فيها فى الحقيقة ولا فلسفة !

وعسى من يسأل : ولكن ما علاقة هذا بالدكتور طه حسين وبما افتتحت به هذا المقال ؟؟ وجوابنا ان العلاقة وثيقة والصلة متينة . ذلك أولاً أن الدكتور قد شاء أن يتفلسف في كتابه فلم يبق لغيره عذر اذا لم يتفلسف ؟؟ وثانياً اننا أردنا ان نعالج هذه الظاهرة العجيبة : ونعنى بها تزلف المرء للجمهور وتظاهره بالاستخفاف به وبرأيه واستصغاره لقدره . فأردنا أن نقول بلسان الفلسفة ان من الدلائل القوية على ان الاصل ان الحياة مطلقة الحرية فى أخذ صورها وتنويعها ان كل واحد منا يحب ان يرتفع عن المستوى العام بالحق أو بالباطل لأن التميز دليل على وفرة الحيوية واربائها فى المرء على النصيب العادى ، وهذا التميز هو الدليل من جهة أخرى على تغلب الفردية أى قانون الحياة على الوراثة التى تحاول كما قلنا وكما تعلم أن تجعل الناس صوراً متطابقة . ومن الذى يرضى أن يكون صورة مكررة من سواه لا تختلف عنه فى كثير أو قليل ؟ من الذى لا يحب أن يسمو فى نظر نفسه أو فى نظر سواه ، وهو المهم ، عن هذا المستوى العام ، وانها لرغبة تنبىء عن احترام الحياة وتكشف عما بين قانونها والوراثة من التنازع . فاذا رأيتنى أو رأيت سواى يتسامى عن منزلة الجماهير فاعذره فقد عرفت الداعى الى ذلك والباعث عليه واعلم ان « الجمهور » لفظ مرن يسعك فى كل لحظة أن تضيقه وتوسعه وأن تجعله كلما شئت يشمل كل الناس إلا « أنت وأنا » .



من الأوهام الشائعة أن الناس مولعون بكل جديد ، ومن الأمور التى يشكوها من يتنكبون الطرق المعبدة أن الناس لايبادرون الى متابعتهم حيثما يذهبون . فأى القولين أصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد أشرنا من قبل الى أن سبيل الطبيعة أن تصل الى غايتها من أهون سبيل ، أى انها تتوخى أسهل السبل وأقلها كلفة وأعظمها اقتصاداً . ولا بأس من أن نعود الى ذلك بشىء من البيان يجلو غامضه ويحل مشكله . ولنضرب مثلين أحدهما من الانسان وثانيهما من غيره ولنبدأ بثانيهما فانه أخف وأيسر ايضاحاً . تسقط الأمطار على الجبال أو سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلاً . فهل علم أحد أن هذا الماء الجارى آثر ، مذ سال على وجه الأرض ان يخترق الصخور أو يعلوها وزهد فى اللين الدمث الذى لا يشق عليه أن ينساب فيه ! كلا ؟ ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو اذا

صادفته أرض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها . واذا اعترضته وعور ذاهبة فى الجو لم يتجشم أن يعلوها ويطم فوقها اذا وجد مجازاً له عن يمينها أو شمالها . ودع هذا وتأمل الانسان وسل نفسك ما السر فى أن المرء يصعب عليه أن يغير ما كون لنفسه من العادات ؟ أليس لأنها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك أن تكون قد ألفت أن تسلك طريقاً معيناً بين بيتك وبين المكان الذى تزاول فيه عملك اليومى . فأنت كلما ذرت الشمس تكرر ما عملته فى الصباح الماضى وتزايل بيتك وتقودك رجلاك وأنت لا تشعر الى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك عليهما فيه كعادتهما فى كل يوم . ومن المؤكد ان سلوك هذا الطريق لا يكلفك تنبهاً خاصاً أو تفكيراً وانك حين تمشى فيه وتمر بما تمر به كل يوم لا يلفتك فيه شىء . شأنك فى ذلك من بعض الوجوه كشأنك حين تأكل : تمتد يدك الى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع الى فمك ومنه تهوى الى جوفك . وليس ليدك عين ترى بها مكان فمك من وجهك ، ولسنا نعلم أن يد المرء تخطىء وترتفع الى الأنف . فقد اعتادت أن تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك فى الطريق المألوف وتذهبان بك فى منعطفاته دون أن تفكر أنت فى شىء . ولكنك حين تسلك طريقاً آخر غير الذى ألفته تلفى نفسك تستعمل عينيك وتجيلهما فيما هو امامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر فى طوله أو

قصره بالقياس الى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الأشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقايسات كثيرة ويحرك هذا الى مواضيع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو أكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئاً منه حين تأخذ فى طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التى ألفت أن تتناوله بها .

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن أن تخلق الناس فى أيامنا هذه كما خلقت أولهم وأسبقهم فى الوجود ، أعنى من طينة الأرض التى صيغ منها المخلوق الأول — كائناً ما كان هذا المخلوق — ولست أعنى بطينة الأرض وحلها ، وانما أعنى المواد الطبيعية الأولية . كما هو ظاهر بالبداهة . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه إلا الله سبحانه وتعالى ، عن اخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق وصرنا نخرج الى الدنيا بطريقة التوالد إذ كان خلق الانسان بالتوالد أسهل من اعادة كل أدوار التطور الماضية كلما اريد خلق انسان ولأن التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الأدوار وبسرعة فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للأصل . واذ كان هذا الكلام يحتاج الى تفسير فليعلم القارىء — اذا كان ممن يجهل ذلك — ان المرء يعيد على صورة مصغرة مختزلة ما مرت به الانسانية من أدوار النشوء ، وللقارىء أن يصدق هذا أو لا يصدقه ، فان كانت الاولى فله منا الشكر الجزيل

على الثقة بنا والاطمئنان الينا ، وان كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا وان يمنع انكاره ان الأمر كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا أضيق من أن نتجشم اثبات ذلك له على حين يستطيع هو أن يريحنا بأن يقرأه فى أكثر من كتاب واحد

والآن فلننتقل الى شىء آخر ، وليحضر القارىء الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التى يسمونها القانون . وهى آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها أن يعيد اصلاح أوتارها كلما أراد أن ينتقل الى « نغمة » مغايرة للنغمة الاولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج الى اعداد أوتاره وتهيئتها من جديد اذا كان الانتقال بسيطاً وفى موضع واحد أو مواضع قليلة من الصوت الذى يوقعه ولم يكن عاماً شاملاً . ونحسب هذا معروفاً مفهوماً . وما منا الا من رأى ذلك وشهده بعينيه . فصاحب القانون لا يغير شد الاوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد اذا كان الخروج عما هيأ له أوتاره جزئياً غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئى عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدمه ولا يكلفه أو يكلف الأوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف أو التوقيع كأن لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو أشبه بقديمهم الذى ساروا عليه وألفوه ، لا يحسون أن جديداً طرأ أو انهم يحتاجون أن يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارىء

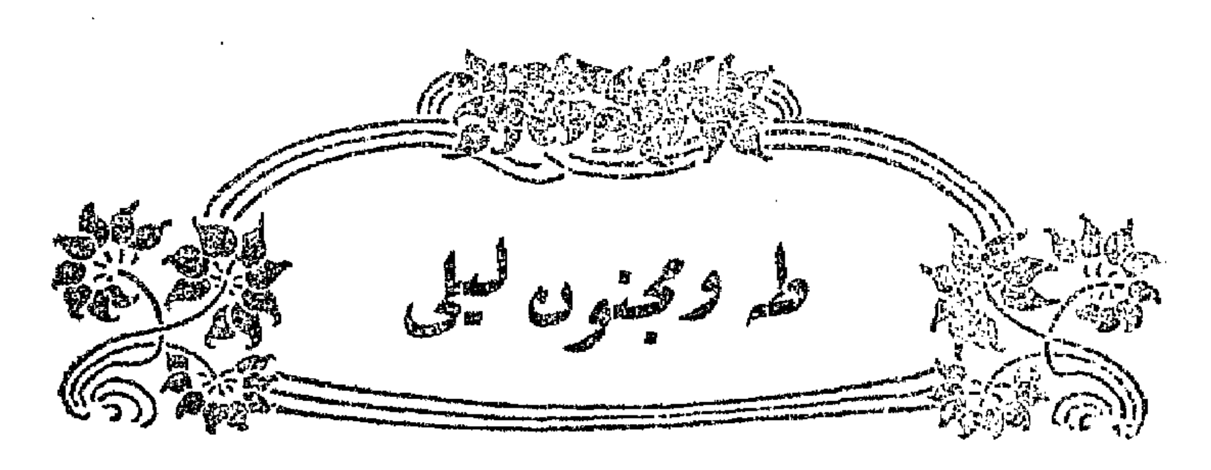
واستقباله . ولا يشعرون بدافع الى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الامثلة كتابات المنفلوطى رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما فى الأمر أنه جعل لكلامه طلاء أو لونًا لا يحيله عن أصله ولا يخرجه عن تياره . وشبيه بذلك أن تستحدث ألوانًا جديدة فى الملابس دون أن تغير الشهرة (المودة) فى تفصيلها — فلا يصدم الناس منها شىء كبير ولا يحملهم على التردد فى قبولها والاقبال عليها أنها مخالفة لما يجرى عليه العرف . ولكن لنفرض أن حائكاً سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا الى خمسين أو ستين سنة ليحيى طرازاً كان شائعًا يومئذ أو كأن يستحدث اسلوبًا تكون فيه الأزرار من الخلف لا من الامام أو تكون السترة أو ما يسمونه « الجاكتة » أشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا! يتحرجون فى أول الأمر وينكرونه ويظلون يتهيبونه زمنًا طويلاً أو قصيراً على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيئوا لقبوله شيئًا فشيئًا ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الايام ان كان له نصيب من الجمال أو الصلاح . وهذا هو الذى يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلاً غير التى ألف الناس أن ينهجها الكتاب ، أو حين يأتى عالم أو فيلسوف برأى يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا فى ظنك كان أهل اوربا فى القرون الوسطى يستنكرون أن يذهب أحد الى أن الارض دائرة أو انها ليست محور الوجود

وقطب الكون أو أن الشمس لا تدور حولها بل هى التى تدور حول الشمس ؟؟ ماذا يعنيهم من كون الأرض كرة أو سطحاً أو هل تدور حول الشمس أم الشمس التي تدور حولها ؟ ماذا كربهم من ذلك فى حياتهم أو أفسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شيء سوى أن الرأى الجديد كان خطوة فى عكس الطريق الذى درجوا عليه كما درج آباؤهم وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لمألوفهم بمثابة القول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام والاذن للشم والعين للسمع . والناس انما يسهل عليهم الاخذ بالجديد اذا كان مقاربًا لما اعتادوه وكان كأنه امتداد له ولم يكن مغايراً فى جوهره لآرائهم أو أذواقهم

وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض انه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا خمسين أو ستين سنة ليحيي طرازاً كان شائعًا يومئذ » ، وأعنى بذلك أن القديم الذى مضى زمنه وانقضى عهده يكون فى حكم الجديد وله وقعه وصدمته حين يراد احياؤه ، لأنه يكون جديداً فى نظر من لم يألفوه ؛ واعتبار من لم يدركوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة اذ كان احياء القديم يتطلب أن تتوفر الاحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التى عفى عليها الزمن وطوى صفحتها

وبعد فليس بصحيح أن الناس مولعون بكل جديد وانما الصحيح انهم يقاومونه ويتهيبون له على الايام وان جديد اليوم اذا

كان صالحاً خليق أن يصبح مألوف الغد . ومن حق الجمهور علينا أن نحمد له ذلك وأن نشكر الله عليه . اذ حقيق بالدنيا أن تنقلب بيمارستاناً ضخماً لو ان الناس فيها كانوا يبادرون الى الأخذ بكل جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحاً والاتزان فى الحياة ألزم وأجدى وأكفل باطراد التقدم من طيش التعجل



بسم الله وما توفيقى الا بالله . وبعـد أيها القراء ، فقد هدانى البحث والتقصى مع الاسف الى حقيقـة خفيت عليكم — حقيقة ان سرنى أنى وقفت اليهـا ، لقد ساءنى والله انها نسخت حلمًا لذيذاً عشت به زمنًا رغداً ، فليست كل حقيقة سارة ، وما كل حلم يشتهى المرء أن يفيق من أضغاثه . ولكنه « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العامى » قاتلهما الله والتحقيق العامى كالجياوتين !! لا يرحم ولا يدركه العطف على الاوهام التى يحصدها والخرافات التى يطـير رؤوسها عن أبدانها التى تتكون على الايام كجزائر المرجان .

وأوجز على خلاف عادتى فأقول : ان « صـديقى » الدكتور طه حسين الذى سمعتم به وقرأتم ما كتبته عنه ، شخص لا وجود له فى دنيانا هذه وانه من مخلوقات الخيال ليس الا . . !!

أتهزون رؤسكم انكاراً ؟ يا سبحان الله ! وهل هو أضخم شأناً أو أحق بأن يكون مخلوقاً حقيقياً من هومر الذى يذهب الكثيرون من جلة العلمـاء المحققين الى أنه اسم خرافى ؟ أو من شكسبير الذى

يزعم بعضهم انه اسم انتحله واستتر وراءه خلافه ؟ كلا ! لا محل للانكار ورفض التصديق : والقدرة الالهيـة التى تفنى الموجود لا يعجزها أن لا توجده أصلاً . والمرء بعد أن يعود ترابًا فى تراب تحت تراب كما يقول الخيام يجرى ذكره على « بعض » الالسنة ثم يقل وروده عليها يومًا بعديوم حتى تطوى صحيفته ويتم محوه فكأنه ما كان . وذاك مرجوعنا جميعًا باذن الله فى هذه الدنيا التى لا تتسع لنا الا فوجًا فى أثر فوج. وهبوا الدكتور حقيقة مادية نامسها ونحسها اذا شئنا فماذا يضيره أن ننكر وجوده ؟ أليس الثابت على كل حال انه — بعد عمر طويل ان كان يشتهى طول العمر — سيحور صدى تتجاوب به كهوف بعض النفوس أو على الاكثر كتابًا أو كتبًا تتداولها الايدى ؟ نعم . وما أحسبه يمكن أن يطمع فى اكثر من هذا لانه ليس ثم ما هو اكثر من ذلك ، وهـذه كتبه بين أيدينا فماذا اذن ؟ ما حاجتنا الى صاحبهـا ؟ لماذا ينبغى أن يكون لهـا صاحب موجود ؟ ؟ ويا سيدى القارىء ان هذا الذى « يتسمى » الدكتور طه حسين ينكر فى احدى مقالاته المعزوة اليه ان شخصًا اسمه مجنون ليلى دب على ظهر الأرض ويزعمـه طائفة محشودة من القصص ابتكرها اكثر من واحد . ودليـله على ذلك ان الرواة تضاربوا فى هذا المجنون وبالغوا وجاوزوا المعقول ولا أدرى ماذا صنعوا أيضًا ! أفلا نستطيع نحن قياسًا على هذا المنطق أن نشك فى وجود من نشاء بل ان ننكر وجوده بتاتًا ؟ ؟ نعم يسعنا ذلك بلا ريب ، ومن ترى

أحق بأن يطبق عليه هذا المنطق من صاحبه ؟؟ ويعز علينا أن نمحو من الدنيا رجلا قبــل أن تعفى عليه الايام كما ستعفى علينا اجمعين . ولـكن المثل يقول « كما تدين تدان » ولقد أسلفنا لك ان الدكتور لم يتحرج أن ينكر أن مجنون ليلى وجد فى الدنيا ولم يصده عن هذا الانكار القاسى حتى ولا العاطفة الفنية . ورحم الله ابن الرومي فقــد كان يقول :

ولو أننى أحببتُ ميتًا ، عشقته
بحسن الذى آثرت فيه من الحسنى

ولـكن الدكتور يعمد الى صورة حية فيحاول بمنطقه ان يقضى عليها ويفجعنا فيها ويسلبنا اياها ويحسب ان قصة المجنون يمكن أن تبقى لها روعتها وجمالها وأخذُها بعد ان تفقد الاصل وتخسر عنصر الوحدة فيها ، وبعد ان تصبح مرقعة كأسمال المتسولين ! فها قد قيض الله للدكتور مجنونًا آخر ينكر وجوده كما انكر هو وجود المجنون القديم ! ! وانه لا نتصاف ! فما يضير صاحب ليلى ما يقول الدكتور فيه . فأما الدكتور فسيحتاج بعد اليوم الى كل من عنده من الشهود وما فى جعبته من الاوراق ليثبت ان لاسمه مسمى وهيهات ! !

كنت جالسًا ذات يوم مع صديقى الاستاذ العقاد فتذاكرنا حديث الاربعاء وصاحبه بمناسبة ما كتبته عنه واستطردنا الى طريقته فى البحث « والتحقيق العلمى » ثم الى سيرة مجنون ليلى فقال الاستاذ العقاد عن أى شىء يسفر البحث يا ترى لو نسجنا على منوال الدكتور فيما

كتبه عن المجنون ؟ انه لا يبقى منه شيء كما لم يبق هو شيئاً من المجنون ، والحق اقول ان مقترح العقاد راقني وان نفسي ظلت تنازعني بعد ذلك ان أتولى امضاء هذه الفكرة فلبثت أتردد حتى لم أعد أستطيع المقاومة. وقد أقنعت نفسي بقولى لها ان العقاد لا يضيره أن أسطو على فكرة او افكار له فانه أغنى من ذلك وأنا أفقر من أن أدعيها له وان كنت أردها بهذا الاعلان اليه

و بعد هذا البيان الذى لا بد منه أقول لنفرض أن مؤرخاً فى القرن الثالث والعشرين مثلاً تناول حياة الدكتور بمثل تمحيصه وتحقيقه العلمى فهل تكون النتيجة الا كما يأتى : —

يزعمون ان رجلاً اسمه الدكتور طه حسين عاش بمصر فى أوليات القرن العشرين وانه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها اليه ونحاوه اياها ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين : أحدهما أن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون « طه حسين» وثانيهما أن يكون هذا اسما استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه . ذلك انه ، على ما روى ، أزهرى النشأة والازهر هذا جامعة اسلامية كبرى يلبس طلابها الجبة والقفطان والعمامة أو ما ماثل ذلك من ثياب العامة فى ذلك الوقت مما تجد نماذج منه فى المتاحف . فهو على هذا « شيخ » ويقولون انه كان فى صدر أيامه هذه يكتب فى صحيفة يومية اسمها « الجريدة » ولكني راجعت مجموعة هذه « الجريدة » فى دار الكتب فألفيت أحد

أدباء ذلك العصر واسمه « عبد الرحمن شكرى » يسميه « طه افندى حسين » فى مقال له . وهو مالا سبيل الى حمله على انه خطأ أو زلة قلم لان الفرق بين الافندى والشيخ كان من الوضوح ، والاختلاف فى التعليم والنشأة والوسط والزى كان من الشدة ، بحيث لا يعقل أن يقع الخلط بينهما . فهل طه افندى حسين هو عين الشيخ طه حسين ؟؟ ولا شك أن شكرى كان يعرف المعنى « بطه افندى حسين » فقد كانت بينهما ملاحاة يدل على ذلك قصيدة نشرتها الجريدة بامضاء « طه حسين » ومطلعها

« قل لشكرى فقد غلا وتمادى   بعض ما أنت فيه يشجى الفؤادا »

وأحر بمتهاجيين أن يعرف كل منهما صاحبه وأن لا يجعله « أفنديًا » وهو شيخ . ومما هو خليق أن يضاعف الشك فى انهما شخص واحد أن الشعر لم يكن من أدوات الشيخ طه حسين وان ناشرى كتبه ومترجمى حياته لم ينسبوا اليه بيتًا واحداً .

ويعزى الى طه حسين ولا أدرى أيهما ؟ مقال بل عدة مقالات فى الجريدة يدعو فيها الى تغيير الهجاء ورسم الكلمات . فهل كان الداعى الى هذا والملح فيه الشيخ طه أو طه افندي ؟ أما الشيخ طه فكان على ما يقولون مكفوف البصر وكان فى ذلك الوقت لا يزال طالبًا بالازهر ، ومن المعلوم أن طلبة الازهر كانوا من « المحافظين » ومن أشد طبقات المتعلمين استنكاراً للبدع ونفوراً من أصحابها وكثيراً ما كانوا يتجاوزون الاستهجان بالقلب أو باللفظ ويتضاربون بما

كانوا يتفكهون بأن يسموه « السـلاح الاحمر » يعنون به النعال !
ولم يروأن الشيخ طه كان من أبطال هـذه المعارك الحمراء ولا من ضحاياها، وأخلق به ألا يكون وقد كان كما يزعمون ضريراً . فلو أنه صاحب هذه البدعة والمنادى بها لاصابه رشاش من قذائفها، زد على ذلك أنه ضرير . وما اهتمام الضرير برسم الكلمات ؟ !! ما له ولهذا وهو لا يعانيه ولا يكابد صعوباته ؟ ! ان الاهتمام لذلك والتحمس له أحق بأن يكونا من رجل يكابد الكتابة بنفسه لا من كفيف ما عليه الا أن يملى . وهو على كل حال خاطر أولى به أن يجرى ببال مبصر لاضرير . فالأرجح فى الاحتمال والاقرب الى المعقول أن يكون هناك شخصان اسم كل منهما « طه حسين » وأحدهما افندى مبصر يقول الشعر ويدعو الى تغيير الهجاء والثانى شيخ ضرير يكتب فى الادب

والآن من هو الدكتور طه حسين صاحب « حديث الاربعاء » ؟
أهو الشيخ أم الأفندى ام هو لا هذا ولا ذاك بل شخص ثالث ؟ ؟
أما انه أحدهما فانى أقطع بنفيه . وحسبك الفرق بين أسلوب هذين وأسلوب ثالثهما . وسننقل لك فقرات تريك من التباين مالا يدع مجازاً للشك فى ان الكتاب عديدون

قال الشيخ طه حسين فى كتابه ذكرى أبى العـلاء « كان أبو العلاء يحرص أشـد الحرص على أن يخفى نفسه على القارىء فى بعض رسائله ولكن شخصه كان يأبى الا الظهور . وكان يلقى بينه

وبين القارىء أستاراً صفيقـة من غريب اللفظ ، وحجباً كثيفة من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى الا أن تخترق هذه الموانع كافة لتصل الى قلب القارىء فتترك فيه ندوباً لدغات الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالا »

وهو أسلوب لا شذوذ فيـه كما ترى . ولكن اقرأ الآن الفقرة الآتية من كلام « الدكتور » طه حسين فى نفس الموضوع والمعنى . قال « ذلك ان أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس ايثاراً للغريب وتهالكا عليه . ثم كان ابو العلاء الى هذا — فيما اعتقد أنا — يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم — سواء فى ذلك العلماء وغير العلماء — عن قراءته والظهور على ما فيـه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأن أبا العـلاء كان يحس ان عصره خليق ألا يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذى نحن فيه وللعصور التى ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الادبية ان يفهمها اهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها وكأنه انما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وارصاداً شغل بها اهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا اليـه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة فى الخلق والجماعة والدين »

ثم اقرأ للشيخ طه حسين قوله من ذكرى أبي العلاء أيضاً «من قرأ رسالة الغفران وأراد أن يفقه معناها حق الفقه احتاج الى دقة ملاحظة ، وحذق فطنة ، وبعد نظر ، ونور بصيرة ، والى ان يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف اغراضه فاذا لم يوفق الى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من اقوم كتب الدين »

وقس هذا الى ما كتبه « الدكتور »

« أراد ابو العلاء ان يتفكه واراد ابو العلاء ان ينقد واراد ان يكفر واراد ان يؤمن ولست احتاط فى لفظ ولا اتحرج من معنى وانما اريد ان اكون حراً فيما افهم وفيما اقول فالحرية وحدها هى السبيل الى فهم ابي العلاء هذا كله، اراد ان يتفكه فتفكه الى غير حد ، واراد ان ينقد فنقد فى غير رحمة ، واراد ان يكفر فكفر بغير حساب ، واراد ان يؤمن فآمن فى غير شك . اراد هذا كله ووفق الى هذا كله احسن توفيق الخ »

وانما اكثرت من المقتطفات ليتيقن القارىء ان الكاتبين شخصان مختلفان ولا عجب ان يكونا كذلك فان الاساوب صورة من النفس . وهكذا صار عندنا من المشتركين فى حمل هذا الاسم ثلاثة اشخاص متباينين : شيخ وافندي ودكتور

ويظهر ان هناك اكثر من دكتور طه حسين واحد . ففى بعض المقالات المعزوة الى هذا المتسمى «الدكتور طه حسين» تنويه بأن كاتبهــا كفيف وفى البعض الآخر ما يفيد انه مبصر فهو يقول

« قرأت ورايت وشهدت » وما الى ذلك من الالفاظ الدالة على الرؤية ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلا بل كما هى كائنـــة . مثال ذلك بعض رسائل بعث بها من فرنسا وفيها يصف مناظر البلدان ، ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر فى كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا الى التمثيل والاداء ، ومما يؤكد هذا التعدد ايضاً ان لاحد هؤلاء الدكاترة — فانهم على ما يبـــدوا لى كثر — ابناء يسميهم اسماء افرنجية ، وان الصحف المحفوظة فى دار الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طه حسين والبعض يذكر الدكتور طه وواحدة تزعمه استاذاً فى الجامعة واخرى صحفيًا ، ومعروف ان قوانين ذلك العصر لا تجـــيز ان يكون المرء موظفًا فى جامعة اميرية وصحفيًا فى الوقت عينه . واحد هؤلاء الدكاترة كان مولعًا باللاتينية واليونانيـــة وكان يلح على وزارة المعارف ان تدرسهما فى المدارس الثانوية ولا يكاد يتفق ذلك مع الصبغة الازهرية الاولى . اضف الى ذلك ان « الشيخ طه حسين » كان ذا لحية وان دكتور الجامعة او الصحفى كان افنديًا حليقًا ، فالامر كما ترى لا يعدو احدى اثنتين : ان يكون هناك اشخاص عديدون بهذا الاسم ، وهو غير محتمل ، او ان يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الارجح » .

* * *

وبعد فكيف يرى القراء هذا المنطق ؟ أليس مهلهلا واهن

الاركان متداعي البنيــان ؟ نعم هو كذلك بلا نزاع ! ولكنه ليس اوهى من منطق الدكتور فى كلامه عن المجنون . ولقد اردنا ان نثبت بهذا التطبيق انه ما هكذا يكتب التاريخ ولا على هذا النحو يكون « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العــلمى » وانه اذا كان مجرد التضارب فى الروايات والعجز عن التوفيق بينها يكفيان لمحو رجل من الوجود فقد صار ذلك سبيلا الى انكار كل شيء

ولقد تعمــدنا فيما اوردنا ان نسوق اشياء من هنا وههنا وان نهمل الصلات الـكائنة بينها لان كثيراً من حلقات السلسلة يسقط مع الزمن ولأن هذا على الارجح هو كل ما يبقى معروفاً عن المترجم له بعد قرن اوقرون . وهل فى تراجم العرب مثلا اكثر من هذا ؟ هل يعرف احدنا عن شاعر اموى او جاهلى ما هو اوفى او اشد اتساقاً مما اوردنا من حياة الدكتور ؟ كلا ! فاذا كان الدكتور طه يبيح لنفسه ان ينكر وجود المجنون اعتماداً على التضارب فى الروايات ونقصها وتشويهها فقد ضاع الدكتور نفسه والله ؟ وشبيه بهذا ان يختلف شهود حادثة فتنكر وقوعها



نعود الى الدكتور طه حسين لنُحييه بعد أن نكرناه ولنقول كلمة فى التفاتات ذهنه واتجاهات خواطره ، كان حقها التقديم ولأمرٍ ما تأخرت ، ولقد بينا من قبل أن المرء يترجم عن نفسه ويكشف عن دخائلها ويعرض على الناس جوانبها فى كل ما يكتب ، قصد الى ذلك أم لم يقصد ، ولعل العمد مفسدة ، وأتم ما يكون الكلام حين ينطلق على وجهه فى غير تكلف ، ومن الذى وسعه أن يقف على مستسر نفسه ويحيط بما انطوت عليه من مضمراتها ؟ هذا ، ولو لم يكن من ذلك إلا أن لكل امرىء أسلوبه فى الكتابة وفى الطريقة التى يتناول بها موضوعه والجهة التى يطرقه منها لكان ذلك حسبنا .

ولقد لفتنى من الدكتور فى كتابيه : « حديث الاربعاء » — وهو مما وضع — « وقصص تمثيلية » — وهى ملخصة — ان له

ولعًا بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة . وقد ينكر القارىء أن أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ، ويقول انها ليست له وان كل ما له فيها انه ساق خلاصة وجيزة لها . وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه كالابتكار سواء بسواء وانما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه . ولست بمازح حين أنبه الى ذلك . وها هو ذا حديث الاربعاء ماذا فيه ؟ فيه كلام طويل عن العصر العباسى ، وللعصر العباسى وجوه شتى ، وفى وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته أو علمه أو شعره ، وجده أو هزله . ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك انه عصر مجون ودعارة واباحة متغلغلة الى كل فرع من فروع الحياة . فلماذا ؟ لأية علة يغضى عن الجوانب الاخرى لذلك العهد ؟ بل قل لماذا لا يرى فى غير الماجنين والخليعين صورةً منـــه ؟ ولست أفترى عليه فانه القائل فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه « ادرس هذا العصر درسًا جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة ، هى ظاهرة الاباحة والاسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم دينًا أم خلقًا أم سياسة أم أدبًا . فقـــد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشًا اضطر الخلفاء من بنى العباس الى ان يبطشوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء

الأدب العربى القديم والعادات العربيــة القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر ازدراء الامة العربية نفسها وتفضيل الامة الفارسية عليها، وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله . وليس يعنينا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدرَ هذا التغير وانما الذى يعنينا ان هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر فى الشعر ظهوراً جعل انكاره مستحيلاً »

ولم يكف الدكتور أن يعمد الى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر بل هو ينكر ان غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العهد العباسى : واقرأ له قوله فى ص ٥٠ من هذا الكتاب

« . . فقد بينا فى ذلك الحديث ان هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقًا وكانوا أشد له تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين واصحاب الكلام وان هؤلاء العلماء على ارتفاع اقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى ان كثيراً منهم كان ورعًا مخلصًا طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ولها، كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة « فى سره » كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم »

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر؟ كلا يا سيدى ! بل يجرى الى آخر الشوط ويقول فى الصفحة التاسعة والثلاثين من

كتابه « خسرت الاخلاق من هذا التطور وربح الأدب فلم يعرف العرب عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف فى فنونه وألوانه كهذا العصر ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق فى ذلك العصر والعصور التى وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً فى الجاهلية ولا فى صدر الاسلام ولا فى أيام بنى امية وانما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب أو عند ما انتقل العرب اليها فاستقر سلطانهم فى بغداد وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل »

واذا سمعت رجلاً يقول ان الاخلاق فسدت وخسرت وان الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر اذا قلت انه ينفح عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة ؟ ؟ نعم بلا ريب ، وانت تحس من كلامه الرضى والارتياح ، ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله فى عقب ما سقنا لك « وانما الذى يعنينا الآن ان نلاحظه ان هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا اليه من شك فى كل شيء وعبث بكل شيء واسراف فى المجون واللهو كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً اكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو اثم يقترف وكانت اللذة والآثام حديثهم اذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغــة والفلسفة

حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء فقد كان الاماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة فيلذون و يتحدثون فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى والعقل العربى ، كانت هذه الاحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح . كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل » اه ص ٤٠

ثم مضى يورد سير أبي نواس ومن اليه من مثل الوليد بن يزيد ومطيع ابن اياس وحماد عجرد والحسين بن الضحاك ووالبه ابن الحباب وابان ومروان ابن أبي حفصة ويقول فى بيان الحكمة فى ذلك انه لا يريد أن يكتفى بالقول « بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد واصحاب الشك والمشغوفين بالجد انما كان عصر شك ومجون وعصر افتتان والحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين ايضاً . . . وانما أريد أن اشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون تشخيصاً لا يجعل الى الشك فيها سبيلاً ثم اريد ان ابين ان هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، ان سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء واصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم واهوائهم ومنازعهم يحبونهم و يميلون اليهم و يتفكهون بما يوصفون به من ظرف وما يروى عنهم

من هزل ومجون واذا كان هؤلاء الشعراء واصحابهم من حرية الرأى ومن الاسراف فى حب اللذة والتهالك عليها سراً وجهراً بهذا الحد . . . واذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين ، اقول : اذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى ان هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر ايمان ويقين فى جملتـــه وانما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات » اهـ ص ١٨٤

وحسبنا هذه المقتطفات التى تعمدنا الاستكثار منها لينتفى كل شك فى ان الدكتور يلح فى اثبات ما يذهب اليه وان هذا الرأى الذى عنَّ له وعالج اثباته مستغرق لذهنه وانه يصرفه عن اجالة الفكر فى كل جانب آخر من جوانب الحياة فى ذلك العصر .

ولا يسمح لنا ما تقصد الى تبيينه بمناقشة الدكتور فى رأيه لئلا يختلط الامر علينا وعلى القراء ونكتفى بملاحظة واحدة هى انه ما من عصر يمكن ان يكون له جانب واحد كما يريد ان يصور لنا العصر العباسى . وانه لم يخل زمن قديم او حديث من مثل ما يصف الدكتور . ولو ان كاتباً تناول عصرنا الحاضر لألفى مجال الكلام ذا سعة على نحو ما فعل الدكتور . ولكنه لا يكون صادقاً ولا دقيقاً اذا ذهب يزعم ان حياتنا الحاضرة قائمة على الفسق والفجور والدعارة والاباحة والزندقة والالحاد من أجل انّ الشعراء والكتاب — وانا منهم ولا فخر — ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا وان الناس

يتفكهون فى مجالسهم و يرفهون عن نفوسهم بالتلهى والمجانة أحياناً وان ذلك يعجب الفارغين و يروقهم

و بعد ذلك نعود الى ما كنا فيه وننتقل الى قصص الدكتور ولنبدأ بقوله عنها « فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفواً وانما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفــة و يلذ العقل أو يدعو الى العناية والتفكير » فليس فى الأمر مجــال للتأول والتمحل والاحالة على الاتفاق والمصادفات فان العمد هنا معترف به . ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة فى أسطر قليلة . هذا مطلب لا سبيل اليه . وعلى أنها قصص متداولة فحسبنا أن نقول دون أن نخشى اعتراضاً أنه ما من قصــة منها الا وهى تنطوى على نوع أو أنواع من « الخيانات » أو مما يسميه الدكتور « الشر والنكر » ويقول الدكتور أنه انما كتبها وجمعها ونشرها لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية « على نحو من انحاء الأدب الغربى » ولأنه يرغب « أن يكون بهــذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الادباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصة يحملهم على أن يعنوا بهــذا الفن الناشىء فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً »

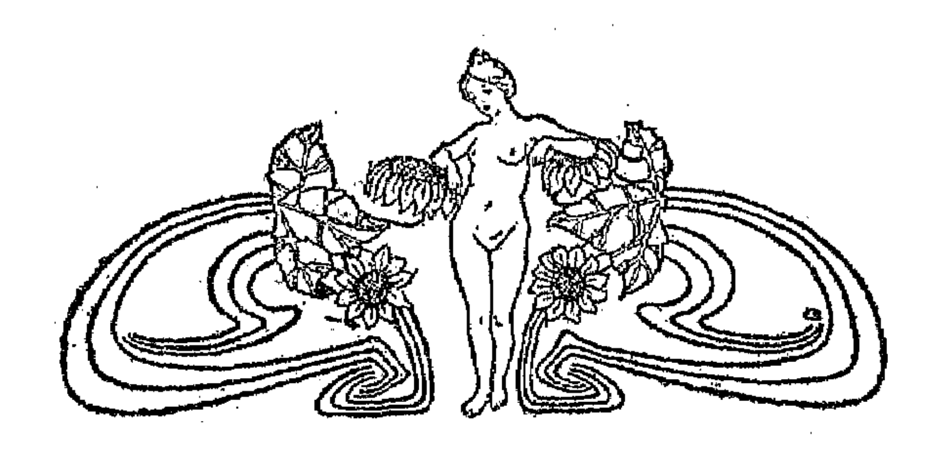
وللقارىء أن يسأل : لماذا لم يؤثر الدكتور « نحواً » آخر من « انحاء » الأدب الغربى وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيره ؟ ؟ لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزوانى وبحكايات

الجهاد — كما يقول هو — « بين العواطف والشعور من جهة و بين العقل من جهة أخرى . بين العواطف والشعور الفردية من ناحية و بين القانون والاوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى . بين العواطف و بين الواجب و بين العقل و بين الدين ثم بين القانون و بين الدين أيضاً » ؟ ؟

ألا ترى أن صنيعه فى اختيار هذه القصص كصنيعه فى اختيار من كتب عنهم من العباسيين ؟ ؟ فكما انه ترك أبا تمام والبحترى والشريف ومهياراً والمتنبي والمعرى من فحولة شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة والاستهتاك ، كذلك لم ينتق من كنوز الأدب الغربي الا هذه القصص الحافلة بضروب « الاثام والمنكرات » حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه القصة الا من هذا النوع . وهو يصف كل قصة يلخصها بأنها « لذيذة » و بأنها « ممتعة » وقد يعتذر لصاحبها بأنها « ليست شيئاً اخترعه اختراعاً وانما هى شيء طبعى يقع كثيراً » و يسأل أحياناً كالذى يريد أن يسوغ هذا الشر والمنكر « من الذى يستطيع أن يوفق بين نفسه و بين واجبه حقاً؟» يقرر طوراً أن الحب فى هذه القصة « حب علماء » و يهون عليك ما فى أخرى بأن واضعها « اذا كان يمثل أشنع الرذائل وأقبحها وأبشع مظهر للطبيعة الانسانية » فانه « اذا بلغ بهذه الرذائل أقصى ما يمكن أن يبلغ بها من الشدة والقبح استخلص منها الخير والفضيلة وأظهر لك أن الانسان قد يكون شريراً وان حياته قد

تمتلىء بالآثام والمنكرات ولكن فى هذه الحياة أو فى هذه الطبيعة الانسانية قبساً من الخير. لا تكاد تختصم الرذائل وخصال الشر حتى يتولد هذا القبس من اختصامها فما أسرع ما ينبعث منه ضوء هادىء مريح يبدد هذه الظلمات ويمحو هذه الآثام وإذا النفس الانسانية طاهرة قد فطرت على الطهر، وخيرة قد برئت على الخير»

ونحسب الآن أن نزعة الدكتور قد صارت ملموسة باليد. فهل لها تعاليل؟ هل فى وسع الكاتب منا أن يبين لماذا كان الامر كذلك والحال على ما وصفنا للقراء؟ نعم. والعلة ظاهرة والكلام حاضر.





العمى والغريزة النوعية

— ١ —

ليس الأعمى كالبصير . هذه ، فيما نظن ، قضية مبرمة . ولسنا نعني أن أحدهما دون الآخر أو أفضل منه ، فليس المقام مقام مفاضلة ، ولكننا نعني أنهما مختلفان وهل يستوى أن يكون أو لا يكون للمرء في وجهه عينان ؟ أليس لهذه الجارحة عمل يمتنع اذا تعطلت ؟ ألا يحدث كف البصر تأثيراً في مزاج الانسان وفي تفكيره واحساسه بالحياة والناس وغير ذلك مما لا يسعنا حصره ؟ نعم . وان الامر لأوضح من أن يحتمل الخلاف . وسنتناول في هذا المقال وجهاً من وجوه الاختلاف العديدة لعل ذلك يجلو ما أشرنا اليه في الفصل السابق انجازاً لوعدنا واتماماً لكلامنا .

الغريزة النوعية من أقوى غرائز الانسان ، ومظهرها الحب كما هو معروف ، والحب — كما لا نحتاج أن نبين — هو أداة التنظيم الكبرى لحياة الناس ، والقوة الدافعة الى تحسين النوع والحيلولة دون

انحطاطه . وليس هنا محل الكلام فى الحب ولكن هنا موضع التنبيه الى أن العين أداته الأولى ، والنظر حاسة «اجتماعية» ليس أعون منها على الاحساس بالجمال ومضاعفة هذا الاحساس وتقويته

ومن هنا عجب الناس لبشار بن برد كيف يعشق امرأة « معينة » وهو ضرير فسألوه فى ذلك، أو أحس هو ان الامر يحتاج الى ايضاح وتفسير، فذكره فى شعره فكان مما قاله :

يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة

والاذن تعشق قبل العين « أحيانا »

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم

الاذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقد أحسن الاحتياط فى قوله « أحيانًا » فما تستطيع الاذن أن تقوم مقام العين أو تسد اختلالها، ولقد صدق ابن الرومى حين قال:

هل العين بعد السمع تكفى مكانه

أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟ ؟

ولكل منهما عمل . وتأمل بيتى بشار اللذين سقناهما لك وانظر كيف روى عن الناس انهم قالوا له انه « يهذى » بمن لا يرى . وما أرى أصلح من هذا اللفظ ولا أحق بهذا الموضع . وهل هو الا ضرب من الهذيان الصريح مهما أولته وكيفما خرجته ؟ ولقد احتاج أن يكرر الرد والاحتجاج لنفسه فقال :

وكاعب قالت لأترابها   يا قوم ما أعجب هذا الضرير!

هل يعشق الانسان من لا يرى   فقلت والدمع بعيني غزير

ان تك عيني لا ترى وجهها   فانها قد صورت في الضمير

وما نشك في انها صورة ملتاثة ان صح أن من الممكن أن تتمثل لضمير الأعمى صورتها ، أو يجاوز الأمر معه الاحساسَ العام . وعلى أي شيء تراه يقيس ؟ ومن أي شيء يؤلف هذه الصورة ؟ وقوله :

ان سليمى ، والله يكلؤها   كالسكر تزداده على السكر

بلغت عنها شكلاً فأعجبني   والسمع يكفيك غيبة البصر

وقوله :

عجبت فطمة من نعتي لها   أيجيد النعت مكفوف البصر؟

وقوله

يزهدني في حب عبدة معشر   قلوبهم فيها مخالفة قلبي

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى   فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

وما تبصر العينان في موضع الهوى   ولا تسمع الاذنان الا من القلب

ولأمر ما عالج هذا المعنى في قصائد عدة ولم يجتزىء بالاشارة اليه مرة . والعين باب القلب كما يقول البحتري

وما كان حظ العين في ذاك مذهبي

ولكن رأيت العين بابًا الى القلب

والجمال منظر ومعان وتعبير . والعين أقدر من السمع واللمس على افادة الاستمتاع به . اذ كانت هي الطريق الاكبر للالتفات

اليه والشعور به والاحاطة بمعانيه . ولأنها هى المعين على تأليف الصور الذهنية . وهى صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة وحصلت بالنظر . وبحسبك أن تقرأ قصيدة ابن الرومى فى وحيد المغنية وكان بها مشغوفًا :

غادة زانها من الغصن قدٌّ	ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد	ين ذاك السواد والتوريد
فهي برد بخدها وسلام	وهى للعاشقين جهد جهيد
ماالما تصطليه من وجنتيها	غير ترشاف ريقها تبريد
وغرير بحسنها قال صفها	قلت : أمران ، بين ، وشديد
يسهل القول انها أحسن الاشيا	ء طراً ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليها	فشقيٌّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا	ها وقمرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الاوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عينٌ	لك منها ، ولا يدر وريد
من هدو وليس فيه انقطاع	وسجو وما به تبليد
مد فى شأو صوتها نفسٌ كا	ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه	وبراه الشجى فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا	مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشىٌ وفيه حلى من النغم	مصوغ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجع فيه	كل شىء لها بذاك شهيد

وحسان عرضن لى، قلت مهلاً ... عن وحيد، تحقها التوحيد

حسنها فى العيون حسن جديد ... فلها فى القلوب حب جديد

ونصيح يلومنى فى هواها ... ضل عنه التوفيق والتسديد

لو رأى من يلوم فيه لأضحى ... وهو لى المستزيث والمستزيد

ضلة للفؤاد يحنو عليها ... وهى تزهو حياته وتكيد

سحرته بمقلتيها فأضحت ... عنده والذميم منها حميد

خلقت فتنة غناء وحسناً ... ما لها فيهما جميعًا نديد

فهى نعمى يميد منها كبير ... وهى بلوى يشيب منها وليد

لى حيث انصرفت منها رفيق ... من هواها، وحيث حلت قعيد

عن يمينى وعن شمالى وقدا ... مى وخلفى فأين عنه أحيد

سد شيطانُ حبها كلَّ فج ... ان شيطان حبها لمريد

ليت شعرى اذا أدام اليها ... كرةَ الطرف مبدئٌ ومعيد

أهى شىء لا تسأم العين منه ... أم لها كل ساعة تجديد ؟

بل هى العيش لا يزال متى استعر ... ض يملى غرائبًا ويفيد

منظر، مسمع، معان من اللهو، ... عتاد لما يحب عتيد : الخ الخ

وقد أطلنا الاقتباس لانا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغة العرب — وقد كدنا نقول أو فى سواها من آداب الأمم الاخرى — هى أجمع من هذه لمعانى الحب والجمال، ولأن ابن الرومى تناول فيها المرئى والمسموع . ولقد يذكر الكفيف الغصن والظبى وما اليهما مما يشبه به شعراء العرب، ولكن هذا منه لا يكون الا تقليداً وعلى السماع

و بمقدار ما أشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها ، ومن غير أن يكون ذلك صادراً عن صورة فى الضمير وأى صورة فى ظنك يمكن أن تكون قد حصلت فى نفس بشار وهو يقول

وكأن رجع حديثها   قطع الرياض كسين زهرا ؟

لا صورة على الاطلاق ! وكل ما هنالك مما دفعه الى هذا التشبيه هو نسيم الرياض المنعش للجسم المحيي للنفس . وقد يتناول المكفوفُ الصوتَ ووقعه ، ولكن الهيئة والشكل يفوتانه ، ولا يسعه أن يحضر بما يسمع ما يحضره البصير ويتمثله من الصور كما فعل ابن الرومى فى وصفه لغناء وحيد فقد تراه يتعلق بهيئتها وسكون أوصالها إذ تغنى واحتفاظها بجمال شكلها فلا عين تجحظ كالوارمة ولا وريد يدر ويمتلىء بالدم وينتفخ ويشوه شكل الجيد وانسجامه . وانظر كيف جعل لغنائها وشياً وحلياً « مصوغاً » لا ساذجاً لم يعمل فيه الفن ، وجعل الشعر «يختال» فى هذا الحلى ، وكيف مثل لك فسحة الخلو وفراغ البال بالقياس الى ما صار اليه من أخذ الحب عليه بالاسداد ، وذلك بقوله « سد شيطان حبها كل فج » وكيف نبه الى ما يمليه النظر ويفيده من معانى الجمال بقوله « ألها كل ساعة تجديد ؟ » وتشبيهه اياها بالعيش الذى لا يزال يعرض الغرائب

ومالنا نقول ان بشاراً اضطر أن يعلل عشقه للنساء بأعيانهن وتشبيبه بهن ؟ ما بشار هذا ؟ انه ليس سوى فرد قد لا يصح اتخاذه

قاعدة ولكن تأمل أمثال الامم وأساطيرها فانها خلاصة صادقة لتجاريبها وغرائزها . ومن الامثال التى نجدها فى كل لغة أن الحب أعمى . نعم . ولقد صور القدماء « كو بيد » معصوب العينين . وليس أحذق من هذا الطفل مع ذلك ولا أسد ساعداً ولا أحكم ، وكأنما أرادوا أن يقولوا انه لا يرى ما لا يحب بل أرادوا أن ينبهوا الى أن كو بيد هذا كله عيون ولولا ذلك ما عصبوها فلفتونا اليها ودلونا عليها . ولو شئنا لاجتزأنا بهذا من أساطير القدماء ولكن بنا حاجة الى أسطورة أخرى . تلك أن فينوس أو الزهرة كانت فى بادىء الأمر ربة الربيع و بساتين الزهر،ثم جعلوها ربة الجمال . وفى ذلك ما لا يخفى من الشعور الباطنى بالعلاقة القوية بين الحب والطبيعة فى عيدها . وفى خرافاتهم أن الزهرة هذه مخلوقة من زبد البحر ، ومن حقها أن تولد منه . فيا ما أفطن القدماء وأهدى غرائزهم ! ذلك ان المحدود الذى يقاس طولاً وعرضاً لا يروقنا ولا يقع من نفوسنا كما يستولى على هوانا و يسحرنا ما تتدفق فيه الحياة . والجمال ليس شكلاً فحسب بل هو أيضاً تعبير ولحظة انتقال كأنما يريد الشكل المجتلى أن يتدفق فى أشكال أخرى . وكل ثبات أو تكويم أو ركوز أو حصر مفسدة كما تحس ذلك من الأنف الضخم أو الظهر المحدودب . ومن هنا كان الانسان أجمل ما فى الطبيعة . ومن الوجوه ما يموج فيه تعبير النفس أو حركة الفكر حتى لتكاد تتخطى العين معارفه وتخطئها ولا تراها .

والعيون نصف الجمال ، وهى مدار السحر ومبعث الفتنة لأنها أنطق الجوارح وأقدرها على التعبير ، وليس من المصادفات أن ولع الشعراء بذكرها ورمزوا بها فى كثير من الاحيان الى الجمال وأطلقوا هذا الجزء على الكل ، كما ترى مثلاً من قول المتنبى

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل

عياء به مات المحبون من قبل

فما يعنى الاحداق على وجه التخصيص ، وانما هو من قبيل ما ذكرنا . وليس فى وسع المكفوف أن يحس الجمال كما يحسه البصير أو يتأثر به مثله ، لأنه ليس محروماً من منظره وحده بل من اكثر معانيه كذلك ، ومما يتصل به عن قرب أو بعد ، ومن الطبيعة أيضاً . وقد حجب عنه كل ما يمكن أن يقيس به وأحر بأن لا يكون عنده فرق يذكر بين النساء وأن تكون كل امرأة متسربة فى الجنس ، والاحساس بها احساساً جنسياً عاماً ، وأن تكون النساء كلهن كأنما أفرغن فى قالب عام ، وقيمهن واحدة من حيث التناسل ، وأن لا تثير الغريزة النوعية الا رغبة عامة فى الانثى . لا ترتقى (أى الرغبة) الى درجة التمييز ولا تبلغ أسمى منازله لانعدام ما يعين عليه . وفى وسعنا أن نقول مع قليل من التجوز ان الفرق بين المكفوف والبصير من هذه الناحية كالفرق بين الشعوب الساذجة التى لا تزال على الفطرة والشعوب التى ارتفعت عن هذا المستوى وصار التميز الفردي فيها حاداً أو بارزاً مؤكداً — تلك تكون الغريزة النوعية عندها عبارة

عن رغبة عامة من الذكر فى الانثى ومن الانثى فى الذكر . وهذه تتوخى التعيين والاختيار ، وكذلك الكفيف تستوي عنده امرأة وامرأة ، وهو اذا اختار وميز لا يكون ذلك مرجعه إلا إلى أسباب لا نخطىء جداً اذا قلنا انها سطحية أو عارضة بعد أن لم يبق له من الأدوات سوى السمع واللمس وما أقل غناءهما وأشد ضلالهما

٢

المرأة بين بشار وأبي العلاء

السمع واللمس — والشم أيضاً — كل ما للمكفوف من وسائط الاحساس بالجمال ، وهى ، كما بينا ، أقل من النظر غناء ، لأن العين هى الاداة الكبرى . وهى أنفس الجوارح وأوثق الحواس اتصالاً بالعقل ، حتى لترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من حركاتها واحساساتها ، والعقل عنها أفهم وبها أقوى وأقدر ، وما يسع الكفيف أن يفهم الجمال أو يحسه أو يتأثر به كالبصير ، والمرأة عنده فى الأعم أنثي يصبو جسد الرجل إلى جسدها،وأداة يرضى بها غريزته . وهو مهما بلغ من السمو يظل إحساسه بالمرأة أدنى إلى الطبيعة الحيوانية منه إلى المعاني النفسية . وسنورد لك أمثلة من شاعرين متباينين أشد التباين : بشار والمعرى . وكان أولهما حيواناً

والثاني إنسانًا،وكان بشار إن فرغ من التشبب بالنساء، أوعلى الأصح من وصف ما يشتاق اليه منهن ويطلبه عندهن من اللذات ، لم يفرغ من ذكر فحولتـه ، وتنزّيه فهو أبداً حيوان حين يذكر نفسه وحين يذكر المرأة . فمن ذلك ما حكوه من انه علق امرأة وراسلها يسألها أن تواصله فقالت لرسوله « أو لك فىّ وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلا حظ لى فيك ؟ فليت شعرى لأى شيء تطلب وصال مثلى؟» فأدى الرسول الرسالة . فقال بشار عد اليها فقل لها — ونحن نمسك عن إيراد الابياتٌ لفرط ما فيها من الفحش ، وحسب القارىء أن يعلم انه أهمل كل ما يمكن أن يتفاضل به الرجال ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذى يتساوى عنده الناس والبهائم ، وأخلق بالبهائم أن ترجح على الانسان من هذه الناحية ، وحتى حين يتخيل حبيبته لا يخرج بهـا عن دائرة الحواس ، ومن ذلك قوله فى عبدة :

أعددت لى عتبًا بحبكمو ... يا عبد طال بحبكم عتبى
ولقد تعرض لى خيالكمو ... فى القرط والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجًا ... برضاب أشنب بارد عذب

والمرأة عنده أنثى تُشتهى وتنال ولا تستعصى على الطالب

قاس الهموم تنل بها نجحًا ... والليل ، إن وراءه صبحا
لا يؤنسنك من مخبأة ... قولٌ تغلظه وإن جرحا
عسر النسـاء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعد ما جمحا

وهو القائل أيضاً :

لا أبالى من ضن عنى بوصل   إن قضى الله منه لى يوم جود

وكان يعمل بما يعلم ، وحكايته مع أمامة مشهورة . قالوا كان يبعث بغلامه اليها فتتمنع فلما أضجرها بالحاحه عرفت زوجها ، فقال لها أجيبيه وعديه أن يجىء إلى هنا ، ففعلت وجاء بشار مع امرأة أنفذتها اليه فدخل وزوجها جالس وهو (بشار) لا يعلم فجعل بشار يحادثها ثم قال

امامة قد وصفتِ لنا بحسن   وانا لا نراك فألمسينا

فأخذت يده ودفعتها الى زوجها ففزع بشار ووثب ؟ ! ومن قوله

قال ريم مرعث   فاتن الطرف والنظر

لست والله مدركى   قلت : أو يغلب القدر

وله رأى فى شعر النساء يوافق تصويره لهن قال : ما من شعر تقوله امرأة ألا وفيه سمة الخنوثة : ولبشار حكاية ليس أنم منها على انحصار الاحساس بالمرأة فى الرغبة الحيوانية وانتفاء الاهتمام بما وراء ذلك والعجز عن ادراكه ، ولكننا مع الاسف لا نستطيع أن نسوقها لشناعتها فليبحث عنهـا من شاء فى أخباره المبعثرة أو فيما جمع له الاديب احمد افندى القرنى . ونوجز فنقول ان بشاراً لم يكن ينظر إلا إلى الانوثة فى المرأة والفحولة فى الرجل ، وانه لم يعرفها سوى متاع يجس ويشم ويستمع اليه

أما أبو العلاء فقد كان وقوراً محتشماً متشائماً رافضاً للحياة

مزدرياً المرأة . وهى (أى المرأة) عنده لا تضمن عفتهـا ، وأقل ما تجنيه ، التبرج ، ومن الواجب أن يداريها الرجل الذى يعايشها ويسترضيها ويتقى غضبها ويراقبها ، فكثيراً ما تظهر الغيرة على بعلها وتسود عيشه من أجل ذلك بينما هى تسقى الخليل ريقها !

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة

من الفكر إلا وارتقيت هضابها

أقل الذى تجنى الغوانى تبرج

يرى العين منها حليهـا وخضابها

فان أنت عاشرت الكعاب فصادها

وحاول رضاها واحذرن غضابها

فكم بكرت تسقى الأمر حليلها

من الغار ، إذ تسقى الخليل رضابها

وان حبـال العيش ما علقت بها

يد الحى إلا وهى تخشى انقضابهـا

ويحول سخطه على الحياة ، اليها ، ويصب نقمته على رأسها ، ويقلب ما يكبحه من اشتهاء نفسه لها ورغبة جسمه فيها ، فيجعله تهالكاً منها على اللذات واستهتاراً فى ارضاء الشهوات ، ويسلبها كل ما عدا ذلك ولا يراها إلا أداة نسل ومطية شهوة ذلول فهى عنده حية سامة

وانما الخود فى مساربها كربة السم فى تسربها

وما فضل النساء ؟ ولأية غاية يطلبن الرجل ؟ أليس للنسل ؟

صحبناك فاستفدت بهن ولداً   أصابك من أذاتك باسمات

ومن رزق البنين فغير ناء   بذلك عن نوائب مقتمات

فمن ثكل يهاب ومن عقوق   وأرزاء يجئن مصممات

وان تعط الأناث فأى بؤس   تبين فى وجوه مقسمات

يردن بعولة ويردن حلياً   ويلقين الخطوب ملومات

ولسن بدافعات يوم حرب   ولا فى غارة متغشمات

وقد يفقدن أزواجاً كراماً   فيا للنسوة المتأيمات

وما النساء عنده إلا

فوارس فتنة أعلام غى   لقينك بالاساور معامات

ولا يغرنك عكوفهن على المصلى

وليس عكوفهن على المصلى   أماناً من غوارر مجرمات

والمغزل أولى بهن من القلم

ولا تحمد حسانك ان توافت   بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى   بهن من اليراع مقلمات

وليكن أخذهن التلاوة عن عجوز مهتمة

ليأخذن التلاوة عن عجوز   من اللائى فغرن مهتمات

يسبحن المليك بكل جنح   ويركعن الضحى متأثمات

فما عيب على الفتيات لحن   اذا قلن المراد مترجمات

واذا احتاج الامر لمعلم فينبغي أن لا تدنو الفتاة حتى ولا من رجل ضرير الا أن يكون هرماً هماً مرتعش اليدين أبيض اللمة

ولا يدنين من رجل ضرير	يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه	ولمته من المتثغمات

وخير للشيخ الفقير أن لا يتزوج متنعمة فأن الفقر والشيخوخة بابان الى العظائم ، والشيب مغتفر مع الغنى اذا كانت « قوى الرجل موفورة » وفي زوجة واحدة كفاية .

ولا يتأهلن شيخ مقل	بمعصرة من المتنعمات
فأن الفقر عيب ان اضيفت	اليه السن جاء بمعظمات
ولكن عرس ذلك بنت دهر	تجنبت الوجوه محممات
ويغتفر الغنى وخطاً برأس	اذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز	الى أخرى تجيء بمؤلمات

ويختم هذه النصائح بأنها من خبير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق	ونصح للحياة وللمات

والرجال لا يؤتمنون على النساء

وأمن على المال الرجالَ ولا	تأمنهمو أبداً على الخرد

واذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه ولا تدخله عليهن فأنهن حبال غي بهن يضيع الشرف

اذا بلغ الوليد لديك عشراً	فلا يدخل على الحرم الوليد
فأن خالفتنى وأضعت نصحى	فأنت،وان رزقت حجى،بليد

الا أن النساء حبال غى   بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فأن ارخاء العنان لها يغريها بركوب ما لا يحمد

شر على المرأة من حمامها   ارسالك الفاضل من زمامها

ومشيها تضرب فى أكمامها   تفوح ريا الطيب من أمامها

زائرة المسجد فى إلمامها   تأثم ، والخيبة فى أتمامها

بأجدل ما عف عن كمامها   أعاذها الخالق من أمامها

وريقها المشروب فى صيامها   سمام أفعى بان من سمامها

ان نزلت عصماء من سمامها   فلا سقاها الطل من غمامها

إذا احتوى الريم على رمامها   لزومها البيت مع اهتمامها

حتى يجيها الوفد من حمامها   وحملها المغزل فى اتمامها

أوفى بما تعقد من زمامها

وأخف ما وصفها به انها خيالات ولعبة .

وما الغوانى الغوادى فى ملاعبها   إلا خيالات وقت أشبهت لعبا

وانتقل الآن من شعره الى نثره ، ومن كلامه فى الدنيا وأوصابها ومتاعبها إلى تخيله للآخرة ونعيمها الخالص الخالد ، وتأمل وصفه للحور العين ، وهن على ضربين : ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة. وهو يجعل ابن القارح يلتقى باثنتين من الضرب الثانى ، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهيجه ذلك إلى مابه ويقول «ان امرء القيس لمسكين مسكين تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعــل به برد أنيابهــا اذا غرد الطائر المستحر

فتستغرب احداها ضحكاً فيقول مم تضحكين ؟ فتقول فرحاً بتفضــل الله ! أتدرى من أنا ؟ . . . إنى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن فى باب العراق بحلب وأبى صاحب رحى وتزوجنى رجل يبيع السقط فطلقنى لرائحة كرهها من فىّ، وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيـا وتوفرت على العبادة وأكلت من مغزلى ومردنى فصـيرنى ذلك إلى ما ترى » وتقول الأخرى « انى كنت توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد أبى على الخازن وكنت أخرج الكتب إلى النساخ » . ودع ما فى هذا الموقف من التهكم . واجعل بالك إلى اقباله الشـديد على ترشف الرضاب وشرهه فى ذلك والى صرخته « ان امرء القيس لمسكين مسكين » وتكريره هذا اللفظ وما يشعرك به ذلك من تحرق الرجل الذى يكبح نفسه حتى إذا أمكنته الفرصة اندفع كالمنفجر . ولا تنس تعلقه بالرضاب ورائحة الفم واختصاصه ذلك بالذكر

أما الحور التى خلقها الله فى الجنة ولا تعرف الدنيا فتخرج لابن القارح من سفرجلة أو رمانة ، جارية « حوراء عيناء » فيسـجد لله اعظاماً ويخطر فى نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية ، على حسنها ، ضاوية (نحيفة) فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف

يضاهى كثبان (تل) !! عالج فيهال من قدرة الله ويقول « يا رازق المشرقة سناها ومبلغ السائلة مناها والذى فعل ما أعجز وهال ، ودعا إلى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية » فيقال له أنت مخير فى تكوين هذه الحورية كما تشاء فيقتصر من ذلك على الارادة » وهنا أيضاً تهكم ولكنه مشوب بما لا يخلو من دلالة على التفات إلى الجسد والى مواضع معينة منه التفاتاً كان المعرى يزجر نفسه عنه فى حياته احتشاماً ونقمة

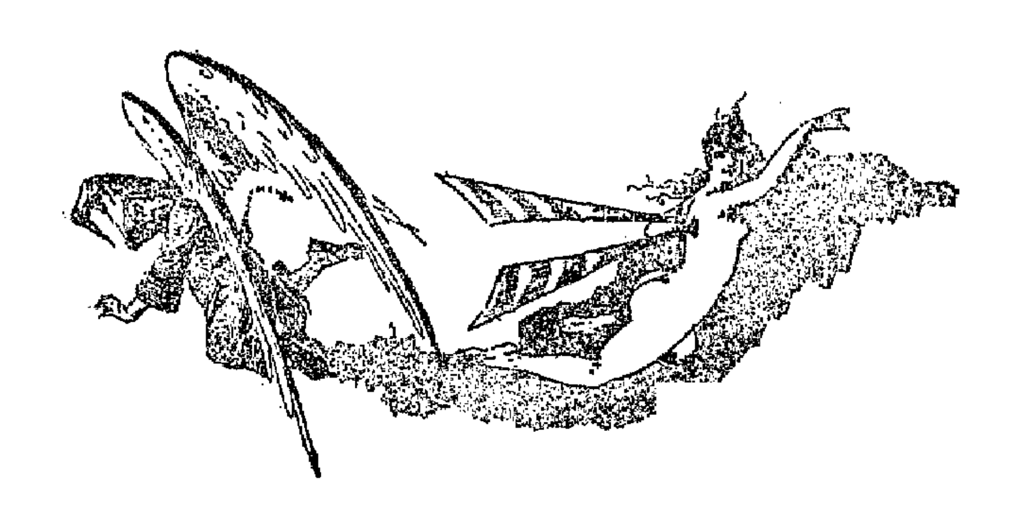
فهو يسيء بها الظن كبشار ، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب ، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية ، ولا ينظر إلى ما وراء أنوثتها وخورها وضعفها ، وان كان مزاجه قد ذهب به مذهباً خلاف مذهب بشار ، والنظرتان متفقتان فى النهاية وصادرتان عن أصل واحد ، وان كانتا مرسلتين من نافذتين متباعدتين . وانك لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطرار الى الكف عن التماس الملاذ ، فى شعر أبى العلاء ، كما يطالعك من شعر بشار حيوانية التسور الى اللذائذ الحسية . وهو فرق أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل . والعمى فى كلا الرجلين علة أولى . وقد كان ابو العلاء شديد الاحساس بعماه وانّ له لهذا البيت :

اذا مر أعمى فارحموه وأيقنوا — وان لم تكفوا — ان كلكم أعمى

وهو حسب المتأمل ولو لم يكن له غيره لكفى

كذلك الدكتور طه حسين . لا يرى الدنيا فلا يعرف عن

الجمال إلا انه أنثى يشتهيها الذكور ويصبو اليها الرجال ، وهو بطبعه مفراح وقد أقبلت عليه الدنيا ومالأه الحظ فلم يجد التشاؤم مرعى له في نفسه ، ولكنه يؤثر الوقار ويميل إلى تقيّـل المعرى والاقتباس به فيكبح نفسه ويردها على مكروهها، غير أن ما لايظهر فى سلوكه الذى يتوخى فيه الاحتشام، يظهر فى كتابته وفى التفاتات ذهنه كما بينا .
فلا عجب اذا رأيناه كلفًا بتنـاول المجان وأهل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص القصص التى تدور على الخيانات وما اليها وتسويغ ذلك والاعتذار له . حتى لكأنما يحاول أن يقول بلسان غيره ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء به من مكنونات نفسه





ليلة

بين الصحراء والمقابر

هي ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعدى ؟ — صحرائى التى لايلقط الطير فيها حبًا ، ولا يجاوب فى خرابهــا قلب قلبًا ، ولا يغيرها صيف ولا شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟ — كذلك كانت قديمًا ، وكذلك أبقاها الله لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها — وجهًا مستعاراً يبدو فيه « الوجه الاعظم » متقنعًا ! ولكم وقفت أدق رمالها بقدمى وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد ان يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضُرب عليها وألزمها هذا المحل ! ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هــذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوءه وينام على صدرها تتموج ، فى مثــل وشى الرياض تنفح روحًا وريحانًا ، ويتداعى الطير على ايكها اعلانًا ، وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الارض أحيانًا » ؟ ! ولكنى أتكلم كأنما هى قد رزقت الحس والارادة !

*
* *

وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منهــا رجلى اقتلاعًا اذ أخبط فى الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء : « بودى لو تماسكت حباتى ، وثبتت ذراتى ، ولانت مواطئي لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به ! »

وهتف بي هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك،وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا[١] لا نملك خلافه ، وقانونًا لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ، وهل نراك تملك من أمرك كثيراً أو قليلاً ؟ »

قلت : « كلا ! »

وانجابت طبقة من الظلمات المخيمة على الصـدر وخلصت أنفاسى قليلاً

* * *

وهبت الريح بى كالمجنونة ، فعدت وكأنى أمشى على ماء لجى يعلو ويهبط ، وسفت الرمال في وجهى حيثما أدرته كأنمـا أرادت الحياة أن ترجمنى،وتسابقت زمازمها الى أذنى فوقفت مكاني لا أريه

(١) الآيين القانون

وأغمضت عيني وقلت لنفسي : ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو ينقصف ! فملت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر فى هذه الحياة الغريبة التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط بها الالم والطرب ، وأقول لا شك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر . وياليت من يدرى ماذا تصنع اذن ! أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شىء وتمحوه أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الارض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح !

فهمست فى أذنى الرياح : ما الحسن والقبح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر ؟ وما الاحساس والعقل ، والخصب والجدب ؟ والصحة والسقم ، واليأس والأمل ، والبكاء والضحك ؟ »

فرفعت رأسى حائراً وأدرت عينى واجماً ثم أطرقت مفحماً ثم نهضت أمشى ! ودلفت بى رجلاى الى المقابر فتخللتها الى جدث فيه شطر من ماضيّ ، وقعدت وأسندت ظهرى الى حجارته وأنا أقول لنفسى « الموت على الاقل راحة ، فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر الى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا الى جانب . . . »

فخلص الى صوت من جانب القبر أن « لا ! »

قلت كيف لا ؟ واستدرت حتى واجهت أضواء القبر .

قال الصوت : لا على التحقيق ! ان لى هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلها أقل مما توهمني وحشة الوحدة التى تطيل أيامي التى صارت كلها ليالى ، أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حُجبت عنى الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحدٌ من الاحياء ، ويشتمل عليه الفناء شيئًا فشيئًا . وأنت –على الاقل– تذكرنى ، فأبقى بذكراك ، فلا تسلمنى الى العفاء بموتك . ولسنا نألم الرقاد هنا ، وان كانت ظهورنا توجعنا أحيانًا من طوله ، ولكنا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الاخير ، وهينا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جدٌّ أعلى لى ، مسكين مسكين قد استوفى ميتاته جميعًا ولم يبق منه شىء . وليت ادكاريه ينفعه ! اذن لرددتُ اليه بعض الوجود ولكن هيهات ! انما يجدى الذكر ممن فوقها دون من هم فى جوفها مثلنا »

قلت « ولكن اذا تعلقتُ بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءك ذلك ؟ »

قال الصوت : « كلا ! سيان عندى أن تفى لى ولا تفى ، ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فانى بعد ان مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره ، ولا ألتفت الى وفائك أو غدرك ، وانى لأدرى فوق هذا ، انك لا تذكرنى لذاتى بل لما طابت به

نفسك على عهدى ؛ فافعل ما بدا لك ولا تعنّ نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبق لى رقعةً صغيرة فى زاوية من ذاكرتك أُفيد بها عذوبةَ البقاء »

قلت : فاذا نسيتك كغيرى ؟

قال الصـوت : اذا نسيت ؟ آه ! ولكن ما لنا ومالم يقع ؟ دع هذا الى أوانه ، وعسى أن يكون بعيداً !

قلت : حسن سأحيا من أجلك،وأتق المهالك اكراماً لك وضناً بك أن تلحق الاموات جداً !

قال الصوت : اتفقنا . فالى الملتقى !

فسرت فى جسـدى رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول « الى الملتقى » ! ونهضت عن القبر ممتلئاً رغبة فى الحياة ، وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى الى دارى خفيفاً كأنما حططت عن كاهلى وقراً . وجعلت أقول فى الطريق : « نعم سأحيا من أجلها ! »

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى اذنى الشيطان اللعـين « تقول من أجل من؟ ؟ » وقهقه !! فغاظنى ذلك فأشحت بوجهى وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه !! ثم صنعت هـذه الابيات وألقيتها اليه من النافذة

* * *

﴿ هاتف من جانب القبر ﴾

جمالَك ! لا تأسف على ولا تأسى
فانى َتحت الارض لا أحفل الحبسا
طوانى الردى عن ناظريك فجاءة
وما كان ظنى قط أن أسكن الرمسا
أرانى الصبى ، شمسى ، بعيداً مغيبُها
فسرعان ماولى النهارُ وما أمسى !
وكنتُ سرور العين والانف والحشى
فقدصرتُ أوذى العين والانف والنفسا
فدع عنك ذكرى انه ليس نافعى
وسيان عندى أن تفى لىَ أو تنسى
ولا تتجشم لى الحفاظَ فاننى
وقد مت ، لا أوليك شكراً ولا حسا
وأدخل اليك الشمسَ من كل كوة
فما يتملى العيشَ من يحجب الشمسا
ستسليك عنى كلُّ زهراء ناهد
وان بقيت ذكراى تهمس بى همسا
فما أنت بالباكى علىّ وانما
على فقدِ ماقد كنتَ طبتَ به نفسا !



من رأى أفلاطون ، فيما وضع على لسان أستاذه سقراط ، ان الحكاية تنشىء العادة . قال « أولم تشاهـد أن الحكاية ، سواء أكانت تقليداً للحركات البدنية أو نبرات الاصوات أو أساليب التفكير ، اذا واظب عليهـا المرء منذ الحداثة ، تحور عادة وطبيعة ثانية ؟ »

وكانت أدوار النسـاء فى ذلك العصر يؤديها الرجال فعاب سقراط ذلك وزجر الشبان الشرفاء عن « محاكاة » المرأة ، فتـاة كانت أو عجوزاً وسواء أكانت تنتقص رجلاً أم تمرد على الآلهة أو تكابد المصائب والآلام والاوجاع . وهم (أى الشبان) أحق بأن يُردعوا عن تقليد امرأة تعانى مرضاً أو حباً او وضعاً »

وأما أدوار الرجال فليس يجوز فى رأى سقراط لممثلها تقليـد الارقاء أو الجبناء أو غيرهم من الناس « حين يشتم بعضهم بعضاً أو يركبه بالمجون أو حين ينطقون بالبذاء والفحش أو يقترفون من

المعايب فيما بينهم أو ضد غيرهم ما اعتاده أمثالهم بالقول أو بالفعل .
ومن رأيي أيضاً أنه لا ينبغي لنا أن نعودهم أن يحاكوا المجانين في
كلامهم أو أفعالهم لأنه اذا كان من الصواب ألا تنقصهم الدراية
بالمجانين والاشرار من الرجال والنساء فليس من الرأي أن يقتدوا بهم
أو يقلدوهم »

* * *

هذه خلاصة وجيزة لرأى سقراط ، أو أفلاطون تلميذه على
الأصح ، فيما تجوز ومالا تجوز محاكاته ، وما يحسن أن ينهى الشبان
عن تمثيله ويزجروا عن تقليده ، والعلاج عنده أن تكون الرواية
مزيجاً من التمثيل والقصص ، وأن يقتصر التمثيل على الادوار التى
تنطوى على النبل والسمو وما هو من ذلك بسبيل ، ويذهب
القصص بالادوار الوضيعة ، وواضح من ذلك أنه يرى أن لتمثيل
الدور مرة بعد أخرى أثراً فى نفس من يؤديه . وليس يعنينا هنا
علاجه الذى وصف ليصون للجماعة فضائل نفوسها وليوقّيها أسواء
التمثيل مع استبقاء ما يسعه استبقاؤه من مزاياه المستفادة من الحكاية
ومن الشعر فيه ، فانها طريقة للتوفيق لا سبيل اليها فى هذا العصر
الذى لا شك أن نطاق التعاطف الانسانى فيه أوسع وأرحب منه فى
عصر أفلاطون ولقد كانت عناية افلاطون بتربية ما نسميه الآن
(السوبرمان) ومن أجل هذا كان يجب أن يوقيه ما يخشى أن يفسد
عليه صورته التى رسمها له فى خاطره . وما عن قلة اجلال لافلاطون

أن نعجب (لسو برمان) لا يخرج الى الدنيا الا فى مثل صوب النبات أو فى بيوت من الزجاج ترد عنــه عادية الرياح والقر والامطار !!
وماذا عسى أن يبلغ من مناعته ومن الجلد والقدرة على احتمال الحياة ومغالبة صروفها وفتنها و بوائقها ؟

* * *

وما لهذا نكتب . وانمـــا الذى نريد أن نقوله هو أنه لا يخالجنا شك فى أن للتمثيل أثره القوى فى نفوس أهله رجالاً كانوا أونساءً ، ومعلوم انه ليس كل ممثل بصالح لكل دور ، وأن بعض الادوار هى فى أيدى بعض الممثلين أنجح ، ونحسب أن مما هو فى حكم البديهى أن الصفات البدنية وحدها — من طول أو قصر ، وضآلة اوجسامة ، ووسامة أو دمامة وسائر ما يجرى هــذا المجرى مما يتعلق بالصوت والنظر — ليست كل ما يتطلبه اداء الادوار المختلفة ، بل ان القدرة على استعارة الشخصية الروائية وافراغها على النفس والجسم ، تستدعى استعداداً وتحتاج الى وجود مقدار من التناسب ودرجة من التطابق . وليس معنى ذلك أن دور الخسيس لا يجيد أداءه الا الخسيس من الناس بطبعه وفطرته ولكن معنــاه ان أصلح الممثلين له أقدرهم على فهمه وعلى الاحاطة بجوانبه وعلى سهولة التسرب فيه . ومن هنا يسعك ان تقول انه مامن ضرب من التمثيــل يوفق المرء فى أدائه الا وثم مقدار من التقارب بين هذا الضرب و بين لابسه .

* * *

وما أظن بالممثلين الذين قد يطلعون على هــذا الفصل الا أن بعضهم سيحمى من ذلك أنفه وينزو فى رأسه الغضب على والمقت لي ، وما أحب أن يسوء أحداً كلام لى فى هزل أو جد، ولكن من العسير على أن أصدق أن امرءاً يحسن مالم يركب فى طبعه ذرة من الاستعداد له ، وقد يعزى هؤلاء ويكسر سورة غضبهم ان أقول لهم ان الناس فى الاستعداد للخير والشر متقاربون على كثرة مايتفاوتون واننا جميعاً من طينة الارض « وأين عن طينتنا نعدى ؟ » كما يتساءل ابن الرومى ، ان كان مثل هذا الهراء البديهي يعزى نفساً أو يطفىء غضباً !

كذلك من العسير أن أصدق أن يظل الممثل يستعير نوعاً من الشخصيات معيناً وأن يفعــل ذلك شهراً بعد شهر وعاماً فى أثر عام وأن يخرج بعــد ذلك كما دخل . وألا يكون من آثار ذلك توكيد بعض الخصائص فيه أو بروز بعض السمات ، عرفت فيمن عرفت من الممثلين المرحوم احمد فهيم افنــدى وكان ذلك فى أخريات أيامه فلفتنى فيــه من صوته وهيئته اذ يمشي أو يقف أو يلتفت او يحدق ببصره مشابه مما يؤدى على المسرح من أدوار الملوك والنصحاء الامناء المخلصين ومن الى هؤلاء . وكثيراً ما تمنيت لو آنى كنت عرفته — رحمة الله عليه — قبل ان يبلغ أثر التمثيل فيه هذا المبلغ . وعلى ان من التعسف ان يلجئنا ما نقدر ان يلقانا به بعض القراء من انكار

الدهشة — لا التفكير — الى سوق الامثلة الفردية وهى مما لا يدخل فى الطوق ان يسوق الكاتب منها الكفاية .

وبحسبنا وبحسب القراء أن نرتد جميعاً الى الأصل ، وهو « الايحاء » ولا يتسع المقام هنا للاسهاب فى بيان وقع النفس فى النفس ولكننا ، إيضاحاً لغرضنا نقول ، ان كل حركة باعثها الارادة وان الارادة تفضى ببواعثها على الحركة الى الجهود المدركة للفكر أو لغير المدركة من الجانب الاحساسى . فاذا كان مصدر هذه الجهود التى تغرى الارادة بالنشاط ليس ذهن الفرد نفسه بل ذهن أجنبى عنه وبعبارة أخرى اذا صارت ارادة المرء طوع رأى سواه أو عاطفته فان ما يصدر عن أولها يكون موحى به اليه . وقد فسر نورداو هذا الاعداء فى فصل طويل ممتع سبق به كل علماء النفس ويلخص رأيه أو نظريته فى أن « الايحاء هو نقل الحركات الذرية من ذهن الى ذهن على النحو الذى تنتقل به اختلاجات سلك الى سلك غيره بجواره ، أو كما يفضى قضيب الحديد المحمى الى آخر بارد بحركات ذراته . ولما كانت كل الآراء والخوالج تنطوى على حركات لذرات الذهن فان مما يستتبعه نقل حركات الذرات أن تنتقل الآراء والخوالج معها »

وأظهر ما يكون ذلك فى التنويم المغناطيسى . فان المنوّم يستطيع مثلاً أن يقول للنائم « غداً صباحاً فى الساعة الثامنة ستمضى الى منزل فلان بشارع كذا وتضربه بسكين مطبخ تحملها معك »

وهو مثل متطرف ضربه نورداو لمثل ما صحت التجربة فيه . قال :
« ثم يفيق المنوّم ويمضى الى سبيله وهو لا يعى شيئًا مما جرى حوله
فى نومه ، وقد لا تكون له معرفة ما بفلان هذا ، ولعله أيضًا لم يمش
قط بشارع كذا ، وعسى أن لا يكون قد آذى فى حياته ذبابة . ولكنه
فى صباح اليوم التالى يتناول سكين المطبخ – وقد يسرقها اذا كان
لا بد من ذلك للحصول عليهـا – ويذهب الى شارع كذا ويقرع
باب فلان هـذا فى الساعة الثامنة تمامًا ويوشك أن يضربه لولا أن
فلانًا يكون قد أنذر من قبل بالتجربة وأحيط بها خبرًا فاتخذ لهـا
ما ينبغى من الحيطة »

وقد قلنا أن هذا مثل فيـه شىء من التطرف لأن الثابت أن
الايحاء لا يبلغ هذا المبلغ من القوة الا فى المرضى دون الاصحاء ، وفى
الضعفاء دون الاقوياء . وواضح من هذا المثل أنه لكى يتخذ الذهن
لنفسه حركات ذهن آخر ويعدى بآرائه وعواطفه وبواعث إرادته
يجب ألا يكون هو مجالاً لحركات من ضرب آخر قوية أو أقوى من
تلك التى يراد نقلها والاعداء بها وبعبارة أخرى ينبغى ألا يكون مجداً
فى التفكير ومثال ذلك السلك المهتز الذى أشار اليه نورداو ، لايثير
فى سلك آخر مثـل اهتزازاته الا إذا كان هذا الآخر ساكنًا أو
ضعيف الاختلاجات . فعلى قدر ضعف الذهن يكون تأثره بحركات
ذهن غيره . وعلى قدر قوته ونشاطه تكون مقاومته . على أن حركات
أذهان عدة – ولو كانت ضعيفة – اذا اجتمعت وتجاوبت باحساس

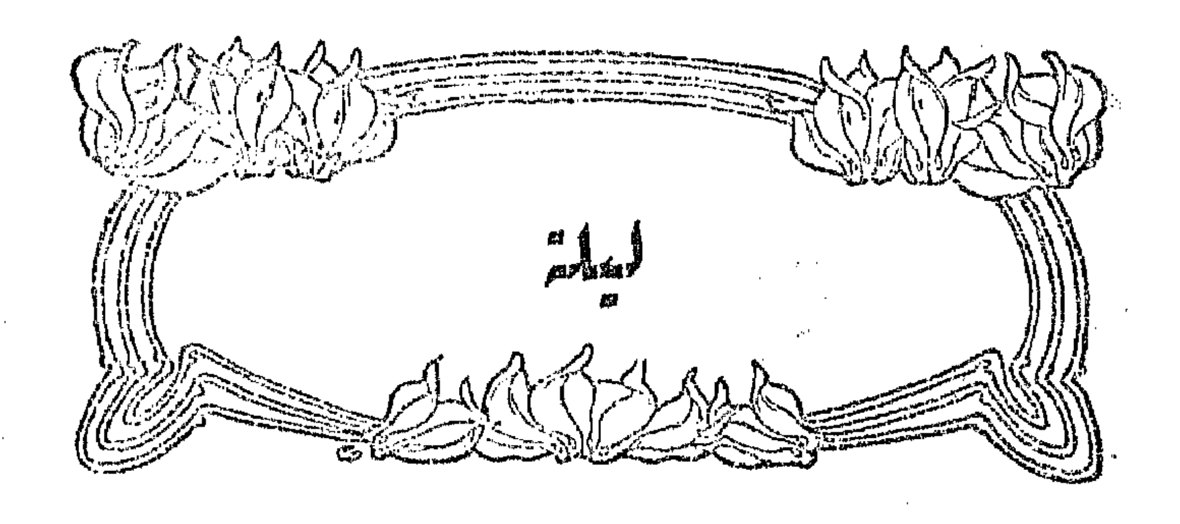
واحد قد تكون أقوى من حركات ذهن واحد قوى ، ومن هنا كان تأثير الجماعة المحتشدة فى الفرد وحملها إياه على تيارها على الرغم من مغالبته لفعلها فى نفسه ، ومن هنا أيضاً تكون ضيعة العقول القوية فى المجالس النيابية وأشباهها اذا زخرت نفوس الاكثرية بعباب إحساس واحد أو متقارب

والتمثيل حين ترجعه الى الاصل ، استيحاء لما يدل عليه الكلام ، وقوامه إخلاء الذهن مما يشغله فى العادة واحلال الحالة النفسية التى يراد استعارتها محله أو بعبارة أخرى إنامة العواطف والخوالج والآراء الشخصية على قدر ما يستطيع المرء أن يفعل ذلك والاعتياض منها آراء وعواطف وخوالج أخرى ، وتمكين هذه المستعارات من استغراق النفس باخلاء المجال لها ، وهذه أصلح الحالات النفسية للايحاء ، وهى قريبة شبه بحالة النائم نوماً مغناطيسياً حين يكون الجهاز العصبى بحيث لا تؤدى ذرات الذهن من الحركات الا أضعفها وحين تكون من أجل ذلك غير مستقرة التوازن فيسهل بأيسر باعث دفعها الى حركة يعينها نوع الباعث وقوته . فالممثل الذى يؤدى الدور مرة بعد أخرى يقع تحت تأثير الشخصية التى يستعيرها بضع ساعات كل ليلة ويكون استعداده لتقبل الايحاء منها أقوى على التكرار كما يكون النائم أشد خضوعاً وأعظم طواعية فى يد منومه على الاعادة

وليس من الضرورى أن يكون المرء أخبر الناس بنفسه وأقلهم

خديعة فى أمرها ولولا ذلك لكان الممثلون أنفسهم أقدر على بيان الاثر الذى تخلفه أدوارهم التى يؤدونها وأعرف بمداه . ولكن المرء أسرع فى العادة الى إنكار الايحاء لتوهمه فى أول الخاطر ان الاقرار به يغض منه وإن كان متبادلاً شائعاً وكان فعله ظاهراً فى التوافه والصغائر ظهوره فى الامور الجسيمة . وكيف تفسر عدوى التؤباء وكون كثرة المؤاكلين أشحذ لشهوة الطعام ، وما الى ذلك إذا لم تفسره بالايحاء





ليلة

من أمتع ما مر بى فى هذه الحياة ، التى لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتكرر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع . فأما الشراب فلعل القارىء أدرى به وأخبر ! وأما السماع فقلّ من شجى به كما شجيت فى ليلتى تلك ! أى والله ! وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت نفسى ، أغمض عينى وأتسمع وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجني صوت سواه ! وقد أعجب لما يُصب فى الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت بأكثر من تصوره فى ضمير الفؤاد ، وقد أغالى فى إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئًا منها بكل ما لى — لو أن لى شيئًا ! — ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى الى انشائها الطرب العارض . ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى فى حدة « أوَ لا يسر الاسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن

نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلاً منهم مما أضفى الله علىّ من الحياة على ما فيها ، ليلةً واحدةً كهذه التى نعمت فيهـا ؟ ؟ » نعم ! ولكنهم قد شملهم ظلام أوركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدرانى أنهم نعموا بمثـل هذا الصوت ؟ ؟ أمن أجل أنهم كانوا ملوكاً أو أقوى وكان لهم سلطان و بأس و بطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حليم

« راجح حلمه ، و يغوى رشيد » ؟ ؟

* * *

وكانت السماء قد جاد الأرض منهـا هاضبٌ ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلامحة ودرنا عليها نأكـل ونشرب ما لا يحسب الحاسب . وأرسل كل منا نفسه على سجيتها وورد من صاحبه « غيرَ المكدر المطروق » وانبسط اليه غير باخس واجباً ثم أخذنا مجالسنا للسماع وآذننا العود « بالاحسان إيذان صادق الخبر » وأطفنا ببكر من الألحان لم يفض لها خاتم من قبل ، ثم رضينا من منظر بمسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من وراء ستور الظلام

واهاً لذاك الغنـاء من طبق ... على جميع القلوب مقتـدر [1]

يملأ روحاً فؤاد سامعـه ... و يصطلى حره من القرر

---

(١) الابيات لابن الرومي

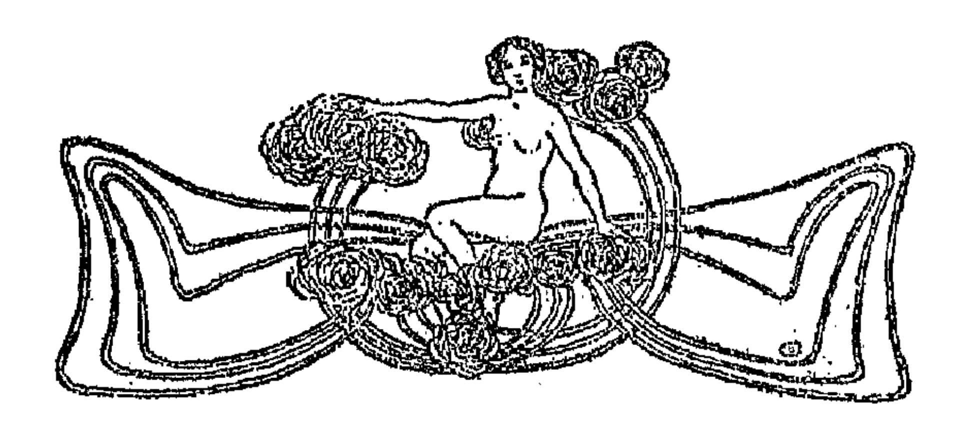
كأنه قالب لكل هوى فكله والمنى على قدر
لا خير في غيره : وهل أممٌ من شارب الراح شارب السكر؟

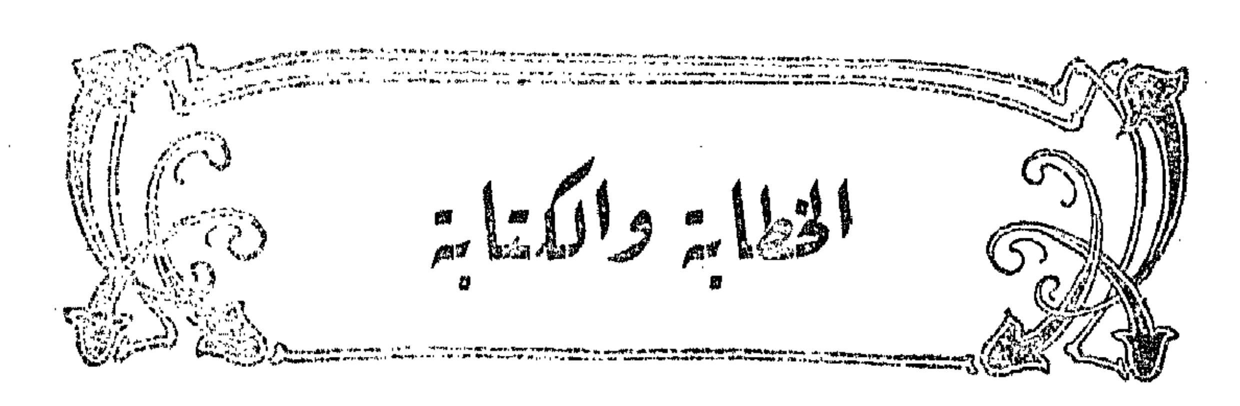
وكأنى لم أكن أسمع بل أُسقى من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها عقولنا ، ومضى الصوت على دله بتوحده يجيش نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر أمواجها ويستثير كوامنها ويرسم على الوجوه آثارها ، وغبت عن حاضرى برهة كررت فيها — ولا أدرى كيف ؟ — الى لحظة من الماضى المغيب الذى استقر فى زاوية مظلمة من الذاكرة ، فأبصرتنى واقفاً مرة أخرى استودع الله لى أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ وقد امتدت الكفان وتضاغتا عن أحنى عاطفة وأوجع احساس ، وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت بالتلاقى فى قبلة حارة طويلة ، ثم تباعدت فى فزع كأنما كانت ترقبنا عين ، ولا رقيب هناك ، وثبت انسان العين بعد أن حُرمناها قبلة فيها برد العاطفة المضطرمة وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً أضاف الى ألم الحرمان سخر القدر !

وتشبثت هذه الصورة بالارتسام امام عينى وأنا أصغى إلى ذلك الغناء الساحر الذى يسمو الى السامعيه مبارزاً ويستكبر أن يعتصم بمساعد فيخفت حتى العود ، ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه الى الظلام !

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته فى ليلة كانت كلها سحراً .

وردنى بعدها بغير ذى أذن الى كل نغمة من سواه ، وغير ذى صَور إلاّ إلى فتنة من هوى فنـه وشجاه ، ولولا أن يعد ذلك جحوداً ولؤمًا لتجاوزت عن ذكر اسمه فانه أحلى عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسنها النرجسى ، وأن أتصوره أبداً هوى سابحًا وروحًا هائمًا وصوتًا هافيًا يُشرب بالأذن صرفًا ولا تُشغل العين بمونق زهره ، ويستريح الفؤاد الى نسيمه ويتخلى من الشجى بحب مجتهره ، ويأنس الصدر الى هديله وينجو بالقلب من حوره . فعسير على طين ابن آدم أن يُجشم احتمال الفتنتين جميعًا .





زارنى مرة رجل كالعصفور ! ولست أعنى أنه صغير فى رأى العين أو العقل ، ولكنما أعنى أنه فى حديثه كالفزع ، لا يكاد يواقع موضوعاً حتى يتركه الى غيره ويثب عنه الى سواه ، . . وسألنى فجأة وبلا مناسبة تقتضى ذلك : « ما هو أحسن تعريف للكاتب ؟ » ومن عادتى حين أجالسه أن انظر الى شفتيه دون سائر وجهه ، وما رأيته قط يهم بأن يدير لسانه فى فجوة فمه الا توقعت أن يبدهنى بجديد، ففى مجلسه امتاع التنقل وفى حديثه لذة المفاجأة ولكنه يتعب الجليس بما يكلفه من الجهد فى التماس الصلة التى فى ذهنه بين المسائل التى ليس بينها فى الظاهر أوهى علاقة. . فاما ألقى إلي سؤاله ابتسمت ودعوت الله أن يلهمنى الجواب قبل أن يطير الى موضوع آخر ! وذكرت قصة « الجريمة والعقاب » لصاحبها دستيوفسكي ووصف السكير فيها وكيف كان يعب فى « الفودكا » ثم يروح ينثر الأسئلة شمالاً ويميناً ولا ينتظر الجواب ! وعجبت لهذا الصاحى الذى له طبيعة ذلك السكران ! واشتاقت نفسي أن أداعبه فقلت « أتريد جواباً لسؤالك ؟ »

قال : وهل فى ذلك شك ؟ إذن فيم أسألك ؟

قلت : فان لى شرطاً . .

قال : ماذا ؟

قلت : أن لا تطالبنى بايضاح .

فأطرق قليلا ثم رفع الى وجهاً كالدرهم المسيح ، ونظر إلي بعينين مظلمتين كالكهفين وقال بلهجة المستسلم الى قضاء الله وقدره « قبلت . . »

فقلت ، وتكلفت السمت والوقار والجد ، وزويت مابين عينى ، وغرزت عنقى بين كتفى ، كأنما أوشك أن أفضى اليه بخبر ضخم ، أو أنطق بحكم ، : « الكاتب ، يا سيدى ، هو الذى لا يكون وحده حين يكون وحده » !!

فحملق مبهوتاً ، ثم هز رأسه يمنة ويسرة ، ونهض عن كرسيه ومد إلي يده فى صمت ، ومضى عنى حاسباً أنى أسخر منه ! وقد انقضت سنوات طويلات ، ولكن صاحبنا لا يلقانى بعدها الا صامتاً ولا يناولنى يده الا مطرقاً ولا يغتفر لى هذه الدعابة الخفيفة التى ركبته بها قديماً !

كان هذا منذ سنين كما قلت ، ولا أدرى ماذا أذكرنيه الآن ، غير أنى لا أرى اليوم فيما قلت له حينئذ شيئاً من الهزل ولا أعد كلمتى تلك التى أسخطته الا جداً صرفاً وان لم أكن أعنى ماأعنى الآن ، فقد

صارت الدنيا فى نظرى مدرسة حقيقية سوى انها سخيفة ! يتلقى المرء دروسه فيها حين يكون بين الناس سابحاً معهم على متن الحياة يصارع أمواجها و يغالب أثباجها ، حتى اذا كر الى الشاطىء وارتمى على رماله ليريح أعضاءه و يستجم لخوض العباب مرة أخرى شرع يفكر فيما لقيه و يجيل نظاره فيه كالتاميذ ، بعد اذ ينصرف عن المدرسة ، يقلب صفحات كتبه ودفاتره ليستظهر ما فيها و يثبته فى ذاكرته ، ولكنها كما قلت مدرسة سخيفة يقضى فيها المرء حياته ليتعلم كيف يعيش ، وتنصرم أيامه وهو لم يحذق الدرس ولم يفز بالجائزة !

ولا شك عندى فى أنه لا خير فيمن يحس حين يكون وحده أن حوله فراغاً . ألا يهتف به هاتف أو يطوف به طائف من ماض ؟ أو ينجم فى سماء نفسه نجم من أمل أوفكرة أو خاطر أو خيال ؟ ؟ انه إذن ليس سوى طفل كبير كل حيويته فى أعضائه . فلندعه يبحث عن ترب له يلاعبه !

كان « بيكون » رحمه الله ، أو صنع به ما شاء ، يقول « ان بعض العقول ملائم لما يمكن إرساله دفعة واحدة أو فى زمن وجيز ، والبعض يخلق مناسباً لما يبدأ بعيداً ولا ينال الا بالسعى الطويل » والطراز الأول هو طراز المحدثين والخطباء ، والثانى نمط الكتاب . ولقد سمعت فى حياتى خطباء كثيرين لا يزال بعضهم ينم بالحياة و بجنجرته ، ولكن أفواهم وأعلاهم لساناً وأبلغهم تأثيراً كان كالطبول التى قالت القردة عنها فيما روى ابن المقنع فى كليلة ودمنة «لعل أفشل

الاشياء أضخمها صوتًا » وكان يخيــل لى إذ أسمعه يخطب الجماهير كأن فى وجهه زوبعة ثائرة أو بركانًا فائرًا ، وكأنه حين كان ينهض ليتكلم « بلاس » الذى حدثتنا الاساطير أنه خرج من رأس « جوبيتر » شاكيًا مستعداً تام السلاح . وكان كلما مضى فى كلامه يعلو ويبهر كالنار المندلعة ، ويقنع السامعين ، لا بالحجة والبرهان ، بل بقوة انتفاء شكه فى نفسه ، وكان يجزم ولا يتردد ، ، ويبت ولا يتلعثم ، ويقرر ولا يناقش ، ويعد ماشاء أقضية مفروغًا منها ومسلمًا بها ، وينزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو ايماءة أو ابتسامة أو دقة على المنضدة ، وكانما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافر وأنياب حداد تمزق الظــلم الذى قام متمرداً عليه وتبعــثر أشلاءه للوحوش والكلاب ، واذا ذكر بلاده وفجائعها خلته « أنطونيوس » واقفًا على جثة « قيصر » ليدفع حجارة رومية الى الثورة والانتقاض ، وكانت عينه تلتمع بنور الوطنية ، وصدره يعــلو ويهبط جائشًا بالعواطف العامة كالعباب الزاخر . . . ثم كنت أتلو خطبته فى المساء أو الصباح فأعجب لتفهها وفراغها وخلوها من كل روعة أو جمال واكاد أقول انها غير ما سمعت أذناى منه . لانهــا ليست سوى الرماد الذى صارت اليه النار التى كانت تزغرد فى مسمعي ولأن الاشارات المقوية ليست هنا ، ولا الصوت الفاتن الذى يسحر المرء عن نفسه ، ولا النظرات الموحية ولا الوقفة الناطقة ولا الجماعة المتعاطفة المعدية

ولعــل أقوى الخطباء فعلاً فى نفوس الجماهير وأبلغهم تأثيراً

لا يكون الا أشبههم بها وأقربهم اليها وأقدرهم لذلك على النزول الى مستواها ، وليس فى وسع الخطيب اذا شاء أن يبلغ من السامعين مايشتهى ، أن يجاوز السطوح أو يهوى الى الاعماق و يطلب الاغوار ، والا جاوز محيطهم وحلق فوقهم وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به . وتأمل ما تظنه أقوى خطبة سمعتها وقل لى من أى شىء تراها مبنية ؟ أليس قوامها الالفاظ المبتذلة والعبارات المذالة وما ألفت الجماهير أن تسمع وتتأثر به وتنفعل له ؟ وهذه المبتذلات أفعل بألباب الجماهير لأنها لا تكلفهم مشقة ولاتدعهم حيارى ولاتتركهم فاغرين أفواههم كالبلهاء ، ولا يحول دون وقوعها فى نفوسهم حائل من تعويص أو عمق أو دقة أو سمو خيال أو لطف تصور ، ولأنها تحرك المزاج العام وتشبه ولا تصدمه ، ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجة الى العمق أو الابتكار وكلما كان أدنى الى طبقة الاوساط العاديين كان هذا خيراً له ولهم وأجدى عليه وعليهم فان حائك الجيش كما يقول « نورداو » لايفصل ثيابه على قد جندى ممشوق القوام من معارفه بل على الطول المتوسط ويقول نورداو ، وليس أصدق مما يقول ، « تصور أربعمائة من طراز جويته ، وكانت ، وهلمهولتز ، وشكسبير ، ونيوتن ، واضرابهم محشودين فى مكان واحد ليبحثوا شأناً عملياً و يبدوا آراءهم فيه ! قد تختلف خطبهم عن الخطب التى تلقى فى المجالس النيابية — وحتى هذا مشكوك فيه — ولكن ما يخلصون اليه من النتائج ويتفقون عليه لا يتعرض لمثل هذا الاختلاف . فلماذا ؟ لا لسبب

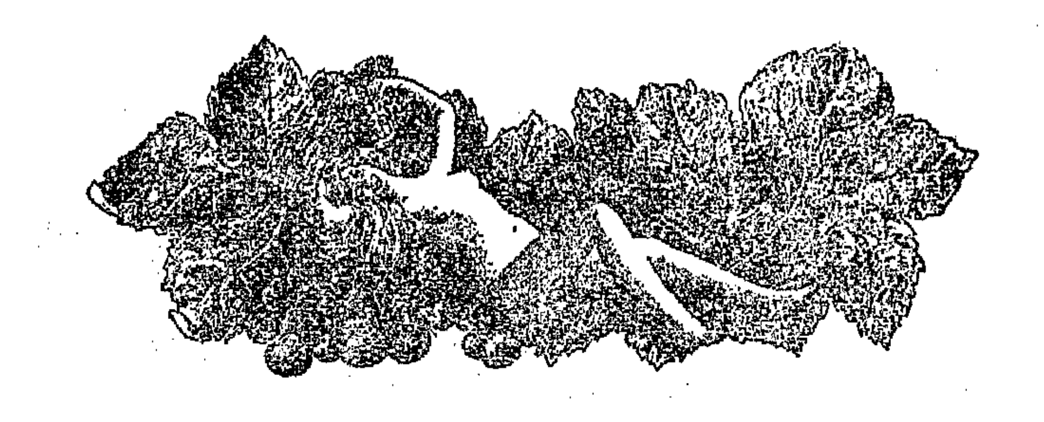
سوى أن كلا منهم — فضلا عن خصائصه التى تفرده وتكسبه شخصيته الممتازة — قد ورث خصائص الجنس التى يشاركه فيهـا ، لا زملاؤه المحشودون معـه وحدهم ، بل كل نكرة من نكرات الشوارع أيضاً — ونقول بعبارة أخرى أن بين الناس العاديين شيئاً مشتركا لا تكاد تتفاوت قيمته نرمز له بهذا الحرف « ا » وأن الافراد الممتازين يجمعون بين هـذا المشترك وشيء آخر خاص يختلف باختلافهم وينبغى أن نرمز له بحرف مختلف فى كل حالة مثل « ب » و « ج » و « د » الخ . والآن فلنفرض أن اربعمائة من العبقريين اجتمعوا فان النتيجة اللازمة تكون أن يجتمع عندنا أربعمائة « ا » وباء واحدة وجيم واحدة ودال واحدة وهكذا . فلا يسفر ذلك الا عن أمر واحد هو أن تحرز الالفات الاربعماية نصراً مبيناً على الباءات والجيمات والدالات المفردة أى أن ما هو مشترك بين الجماعة يتغلب على ما هو من الخصائص اليتيمة التي لم تُتأم . ولقد تعلمنا منذ زمان بعيد فى المدارس أن المختلفات لا تقبل الجمع ، وهذا فى الواقع هو السبب فى أن من الممكن أن نتصور مجتمعاً من الافراد العاديين لا من الآحاد النوابغ . ومن المستطاع — اذا طرحت الامر للتصويت — أن تحصل على رأى أغلبية فى مذاق توابل الكرنب ! أما فى قيمـة نظريات الحياة فلا سبيل الى ذلك . والارجح فى الاحتمال — اذا أُحصيت الاصوات على هذه النظريات — أن تفوز كل نظرية بصوت واحد هو صوت صاحبها !! »

ولكن للكاتب شأناً مختلفاً جداً . عليه أن ينضج ما يريد أن يفضى الينا به و يطلعنا عليه والا كان لا شىء . والوقت أمامه فسيح لتلمس المواد وللعبارة عما يدور فى خاطره و يتمثل لخياله ، والقراء مستعدون أن ينتظروا و يصبروا حتى يهتدى الى ما يبغى و يوفق الى ما يشتهى ، وهو مطالب بأن يؤدى ولا يمطل دينه للحقيقة وللطبيعة . اذ كان لا يخاطب نفوس الجماعة المتعاطفة بل عقل الفرد ، والناس ينظرون اليه نظر التلميذ الى المعلم لا الظهير الى الظهير . فمن حقهم أن يتقاضوه الدقة والعمق وموافقة الصواب وتحرى الحقيقة وحسن البيان وعلو اللسان وأن يكشف لهم عما أفاده الدرس والتحصيل والنظر وما ذخر على الايام من كنوز الفكر وأن ينصف نفسه وعقله ومواهبه وان يجيل لحظه فى سماء فكره لا فى وجوه الجماهير . وليس ما يطلبه الكاتب على طرف اللسان أو حد القلم بل هو ملفوف فى طيات القلب ومنقوش على صفحات العقل طبقة فوقها طبقة ودونها طبقة يرفعها الخيال والفكر واحدة اثر اخرى و يلتمس لها العبارة التى تجلوها فى أحسن خلاها وأقواها

وعسى من يقول : ولكن للخطيب مشجعاً كافياً من ثناء الناس عليه فى وجهه وتصفيقهم له وما يراه من الموافقة ويحسه من القبول وما يشهد من قدرته على حمل الناس على رأيه وليس كذلك الكاتب المسكين الذى يسهر الليل لمن ينامون عنه ويكد قريحته للناعمين بالراحة . فنقول نعم يلقى الخطيب من يصفق له ويهتف ، و يدخل

السرور على نفسه أن يلمس أثر كلامه ويحس وقعه ويشهد ذلك
بعينيه وبكل جارحة فيه . ولا شك أن الكاتب قد حرم هذا وما
يجرى مجراه . غير ان هذا لا يضيره وبحسبه من التشجيع أنه أمين
وفى للحقيقة والطبيعة وانه قوة يحسها من نفسه ويحسها الناس منه

ولقد كان هو قارئاً قبل أن يكون كاتباً وليس يخفى عليه ولا
من الغريب عنه ما يجده القارىء من المتعة وما يفيده من الغبطة .
والخطابة فن أجوف اذا اعتبرت القيمـــة الحقيقية للكلام لا التأثير
الذى تحدثه والوقع الذى يكون لها فمن حقها أن يكون الجزاء عليها
التصفيق الوقتى وما اليه من الاعراض الزائلة . وفن الكتابة أسمى
وأجل فجزاؤه من جنسه معنى سام لا مظهر خشن عامى





سر غرفة ؟ ؟

أم وحى صورة ؟ ؟

لا أدرى أحلم هو أم حقيقة ، ولكنني سأقصه على القراء وأكل الفصل اليهم ، وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك منى أنا الذى أعيش بين الاشباح والطيوف ، وأغدو وأروح فى حاشية منها ، وأستوحش اذا افتقدتها فأزورها وأستثيرها من مراقدها وأحف نفسى بها وأنقاد لها واعاطيها التذكر والحديث حتى ننثنى جميعاً « كأنا قد تعاطينا المداما » ولكل واحد من الناس حياته الخاصة يا سيدى القارىء : لك مجالس انساك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك صاعداً ونازلا على جانبى المقياس ، ولى أشباحى لا أرتاح الا اليهـا ، ولا أرسل نفسى على سجيتها الا معها ، ولا تخلص أنفاسى الا بينها ، ولا أستعذب سوى حديثها وان كان مثله من غيرها حقيقاً بأن يثير الكبرياء ويكوى الغرور من فرط الازراء ، ولكم قالت لى ، وأنا اخبط فى الصحراء معها ، « أتعرف هذا الوجه الذى يطالعك من الظلام ؟ » فانظر الى حيث تشير فلا تأخذ عينى شيئاً غير الظلمة الدامسة فتقول

لى « لا تحول نظرك عنه تستوضحه » فأغرز عصاى فى الرمل وأتكىء عليها وأرسل لحظى الى حيث تومىء فيرتفع مثل الاستار واحداً بعد واحد عن وجه لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره وأثنى اليها الرأس سائلا عن صاحبه فتقهقه وتجاجل ضحكتها فى الفضاء وتقول « كيف لا تعرفه ؟ » فأعجب لانكارها عجزى عن تذكر وجه كالصورة الميتة ليس فيه ما يحرك الخاطر أو يماز به من المعارف عن مئات الالوف من أمثاله ، فتنطقه لى فلا أزداد به الا جهالة وله الا انكاراً ، فتبسم ابتسامة السحر وتقول « لقد كنا نحسبه أشبه الناس بك ! ولكن دعنا من هذا ولنتركه للظلام يحتويه فما هو بأهل لغير ذلك ! »

☆ ☆ ☆

والآن الى القصة ، اذا جاز أن تسمى كذلك ! . .

أقمت على ساحل بحر الروم أياماً ، وفى احدى الليالى أبت الى غرفتى فى ساعة متأخرة وقد أدارت رأسى مناظر الدنيا على ساحله ! ومن حقها ان تفعل ذلك بابن الصحراء وساكنها ! وكان الليل عاتيا

كأن شياطين الدجى فى اهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب

ففتحت النافذة وجلست أصغى الى صوت البحر الجائش واستنشى ريحه ، فدخلت علىّ بلا استئذان غادة فى حفل من الزينة دخول من هذا مكانه . ونزعت قبعتها والقتها على منضدة هناك وأقبلت على المرآة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها وتلوى خصله الذهبية

حول اذنيها وتفرقه على جانبي جبينها وهى تقول اذ تنظر الى نفسها
بادية فى صقال المرآة من قريب ومن بعيد وتصعد طرفها الى صدرها
وثدييها الناهدين الراسخين ونحرها الذى يضيئه عقد من اللؤلؤ ،
وتصوبه الى قدميها الصغيرتين وتنكشف عن ساقها فى جورب بلون
الجلد « من مبلغه انى هنا الساعة ؟ ! انى أتعقبه حيث يكون من
الارض ولا أدعه يفلت منى ، وقـد أكون أدنى شيء اليه وهو
لا يدرى — الى مباءات الحالمين ، وتحت الاشجار التى لا يعشش
فيها غير البوم ، والى سيف البحر حيث اللج يرمى بالزبد — ولكنى ،
مع الاسف لا أستطيع أن أناديه أو أدعوه أو اسمعه صوتى أو أشعره
بوجودى وان كنت منه كظله ! ! وقد يناجينى فيروى سمعى بنجواه
ويطلعنى على ما كنت أجهل وما كان يطويه عنى جهده ويكاتمنيه
ما وسعه الكتمان ، فأعجز عن جوابه اذ كنت لا أملك غير الاصغاء !
فياليت من يبلغه عنى ذلك ليعلم أنى ما زلت على وفائى الذى الزمنيه
والذى لم أندم عليه ! ولن تبرح مخيلتى قط تلك الليلة التى طال فيها
بيننا الحوار وكاد يفضى الى شر حال ، وكيف نهض عن كرسيه
« هـذا » وأنا قاعدة على سريرى ، وحدق فى عينى وأومأ الى
بسبابته وقال « ستفين لى على رغم أنفك هذا (وغرزت اصبعها فى
المرآة) أتفهمين ؟ » فدفنت وجهى بين كفى وانطلقت أبكى فما عبأ
بي شيئاً ! فياما كان أقساه فى تلك الليلة ! ولما طال الامر ولم تجف
عبراتى صاح بى بصوت قوى « خير لك أن تنتهى عن هذه الحماقة

التى لن تغنى عنك شيئاً ولقد صارحتك بعزمى ولو تقل هذا البحر بالغرابيل ما تحولت عنه . وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوساوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطفيلية ، ولو انتزعت معها أصول أحشائك ! وسترين أنى فاعل — بسوطى هذا وذراعى هذه ، اذا احتاج الامر الى هذين ! » وقد فعل . . ولكنى ذويت . . ذويت . . حتى صرت الى ما أرى ! »

وتراجعت عن المرآة ووجهها اليها ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت الى السرير فارتمت عليه برهه حدثتنى النفس فى خلالها أن ألوذ بالفرار ! والحق اقول إنى خفت جداً ! ولكنى جمدت مكانى ولم أستطع حراكا حتى لكأنى استحلت بعض ما فى الغرفة من أثاث !

ثم اعتدلت كالمفيق من غشية وجعلت تجيل عينيها فى الغرفة وتنفض كل ما فيها . غير انها كانت نظرة من لا يكاد يرى . وعادت الى الكلام بصوت مخنوق هاف أيقنت منه انى فى أمان !

« نعم كانت ليلة داجية كهذه . عاصفة الرياح مثلها . وكنا ضجيعين على هذا الفراش . غير انى كنت لا أنفك أفلت من عناقه وأشيح بوجهى عنه كلما أهوى الى بفمه وأمنحه جانب محياى دون صفحته . وأتقى أن تلتقى عيوننا أو أتلقى أنفاسه الحارة بغير خدى . . وأعيته الملاطفة وحز فى نفسه فتورى فاعتمد على كوعه وهو مستلق الى جانبى وألح على يستخبرنى عما بى وعن علة ما كان باديًا على من

الزهادة والسآمة و يسألني ما لجفوني قد جفاها الغمض و يقول « ماذا يجول في هذا الرأس الصغير ؟ أي هم يقض مضجعك ؟ »

فأقول مرائية « كيف يستضيفني الهم وأنا الى جانبك ؟ »

فيقول « أتراني أخلفت لك وعداً أو أسأت بكلمة أو اشارة ؟ لقد نحيت عنك ذراعي في جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه ؟ أتراك نادمة على زواجنا ؟ أم فاتك من هو خير مني وأحب ؟ أم خاب لك أمل أم ماذا ؟ قولي بالله ؟ صارحيني ! لا تخشي شيئاً ! دعي هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفرجان ! »

فأطبقت جفوني حتى لا أراه . ووضعت ذراعي على جبيني لا كثف الستر بيني و بينه ولبثت هكذا لا أنبس بحرف كالذي يريد أن يستغرقه حلمه — نعم كنت أحلم ولكن بغيره — وأسفاه ! بذاك الذي أقسمت له وأنا بين ذراعيه . وفمه على شفتي يوسعهما لثماً أن لا أساكن سواه أوأبادل غيره القبلات حتى الممات، والذي لا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج ! . . . فهممت أن أقول له « اسمع يا صاحبي ! انك زوجي . . . لا انكر ذلك ، ولو انكرته لما أجداني الانكار شيئاً ، ولكنه كان لي صاحب — أو حبيب اذا شئت وأبيت إلا أن تسمى الاشياء أسماءها كيفما كانت — وهو ممن خلقوا ليعشقوا، ولا تكاد تراه حتى تتعلقه وتهواه ، ولكنه فقير لا يملك أن يبلغني من الدنيا مناي ، وليس يخفى عليه أني مخلوقة لنعيم الغنى لا لخشونة الفقر وذلة الفاقة ومراقعها ، وأن صبري على الاقتار عسى أن يكون عسيراً ،

فجعلت من أجله أدافع الخطاب عن نفسى وأتجنى وأبدى الزهادة
فى حياة الزواج ، وأرفض الرجال وأنت فى جملتهم ! حتى انتهرنى أهلى
واستحمقونى وأشبعونى لوماً وتقريعاً فقبلتك بعــلاً . . . اتظن انك
لا تعرف صاحبى هذا ؟ ؟ بلى تعرفه ! ومن تراك تعرف اذا جهلته ؟ ؟
ولقدعاد منذ قليل بملء جيوبه ذهباً وهو يحسب أن قد ساعفته الايام
على بلوغ أربه ولا يدرى انه آب بعد الاوان ! . . وان من حقه ان
اكون له دونك ، وقد كتب إلي يتقاضانى الوفاء الذى اقسمت له
عليه فألهب كتابه النار التى كنت اخالهــا قد خبت . . وماذا عليك
لو تركتني له ؟ القني له ولو كالعظمة ان شئت ! وانت امرؤ لا يرى
الدنيا الا سوقاً تفسدها العواطف . وقد شاء ربك ان يرد قلبى اليه
ويحفظه عليه ولست بقادر ، مهما تصنع ، ان تعترض قضاء الله او
تحول دون مشيئته ، ولخير لك أن ترمى إلي بزمامى . ولأن تدعني
جاهلاً ما كان من امرنا افضل من ان تبقيني فتعلم مانطويه عنك...
نعم فقد راينا ان الزواج لا سبيل اليه بعد ان بنيت انت بى ، فتوافينا
الى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاهدنا ان نكون زوجين واشهدنا
على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح . وانه لعقد لا يعترف به
الناس غير انه مع ذلك صحيح فيما بيننا ، ولأن يكون هو زوجي
وعقيدى اولى من ان تكونهما انت ! ! ولا نكران أن الامر كان موكولاً
الى اختيارى وانى آثرتك عليه امام الناس ولكن هــذا كان
لا مندوحة عنه ولابد منه . وهل كنت تتوقع منى غير هذا فى سبيل

التحفظ بشرفي ؟ ؟ نعم شرفي ! ولست بأول انثى اتخذت من الزواج ستاراً لحنينها ! ! . . ولا يخفى علي انى من اجل هـذا استحق اللعنة ولكني كنت مضطرة اليه اضطراراً . . فأنت ترى أن كل شيء يدعوك الى تركى واطلاقى اليه . . »

هممت بأن اكاشفه بهذا ولكن شيئاً عقد لسانى والجم فمي ، فمنحته ظهرى واستقبلت الحائط . وكأنما مل طول صمتى وآلمه انصرافى عنه واستدبارى إياه كلما حاول ان يتألفني من نفرتى فجذبني اليه بعنف او لعله لم يعنف ولكن ما كانت تجيش به نفسى جسم لى الأمر فهاج هائجي واضطرم صدرى وثرت به ارجمه بكلام لا املك حبس لسانى عنه واقول له فيما اقول

« انى ابغضك . . امقتك من اخمص قدمى الى فرع راسى ! »

قال : « ماذا تقولين ؟ » واعتدل فوق الفراش

قلت : « لقد قلتها ! الم تسمع ؟ لقد كان غيرك اولى بى لو انصفت المقادير ! ! »

فوثب عن السرير الى قدميه كالنمر الهائج وجذبني اليه من شعرى وصاح بي بصوت وحشي اشاع الرعب فى كيانى « من غيرى هذا ؟ افصحى ايتها اللعينة ! »

فلم استطع جواباً وعقد الخوف والالم لسانى وانا جاثية عند قدميه وخصل شعرى ملفوفة على يمينه ، وشماله على جبيني يرفع بها وجهى الى عينيه ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك ثم شد شعرى

وقال « انهضى » ودفعني الى السرير « اسمعي ! لن أقتلك فأنت اهون من ذلك وعندى ما هو شر من القتــل . فاعلمى انى لست كغيرى من الرجال ! انك زوجتى « انا » — وعض هذه الكلمة — وستظلين زوجتى « انا » رضيت ام سخطت ! ولست اعبأ شيئاً بالناس وما عسى ان يقولوا . ويميناً ليس عندى لك سوى السوط امزق به جلدك واطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن ان يعشش فيه من الاباطيل ولأطعمنك اياه كلما أجاعتك اليه الاهواء السخيفة»

فبكيت وسرت فى بدني كرعدة الحمى وتصاكت اسنانى فصاح بى ان « ازجرى عينك عن البكاء فلست ممن تلينهم الدموع او تخدعهم ! ويظهر أنك تغفلتني أو كنت تحدثين نفسك بتغفلي. وسألقى عليك درساً يؤدبك غير هذا الأدب »

فلم اجبه وظهرت على وجهي وهيئتى أمارات الاستخذاء والضراعة ولم يتركني حتى اقسمت له ان اصدقه الولاء وأمحضه الوفاء .

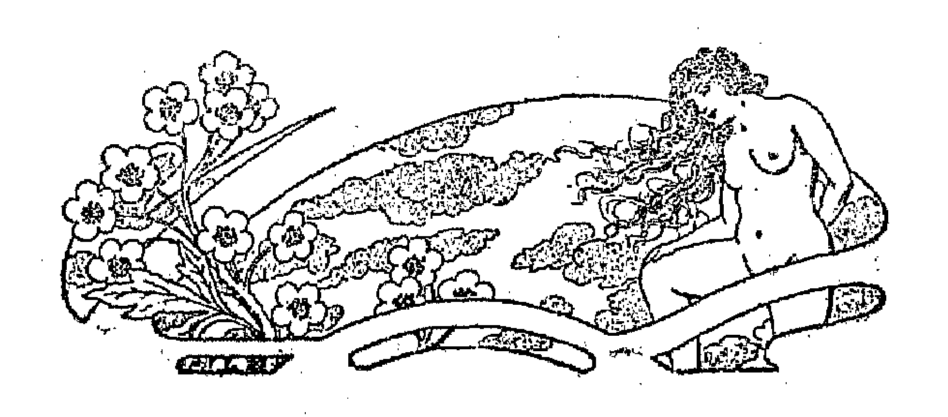
ثم نهضت الى المرآة مرة اخرى وهى تقول « وقد اخلصت . . وحمد لي اخلاصى وتبنى غلام صاحبى ولكنني صرت الى ما أرى !.. وقد اسمعه احياناً يهتف بى مناجياً « ايتها المرأة التى أفتقدها ! من لي بأن أراك كما كنت تبدين لى ! لشد ما اتعثر الآن فى سيرى بعدك ! وما اكثر ما يتساقط حولى من اوراق الحياة وازاهيرها ! » ولكنني لا استطيع ان اجيبه حين يهيب بى وان كنت اتبع له من ظله . »

* * *

وتقشعت السحب عن القمر فنفذ الى الغرفة نوره فرفعت طرفى اليه ثم ثنيتـه اليها فاذا بالفتاة قد غابت ! . . ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال . . فخطر لى ان اعالج الباب لانظر أمفتوح هو أم مغلق وان ارى ماذا فى الدولاب وتحت السرير ! ولكني استحييت من نفسى ! واشعلت سيجارة وجعلت ادخنها رائحا غاديا فى الغرفة حتى اذا قاربت الانتهاء منهـا الفيتني واقفا اتأمل صورة حسناء ! ! فابتسمت وقلت : « اهذا انت يا فتاتى ؟ ؟ كيف خرجت من إطارك هذا بالله عليك ؟ ؟ لشدما ازعجتنى يا سيدتى ! فما جزاء من يعابث ضيوفه على هذا النحو ؟ ؟ ان اواريك عن عيني ! نعم ! »

وقلبت الصورة وادرت وجهها الى الحائط وقلت وانا اتمطى على الفراش .

الآن استطيع ان انام فى امان من خيالاتك ايتهـا الحسناء الماكرة !





ليس أخطر من التعميم فى الاحكام ، ولا سيما اذا كان الامر خارجاً عن دائرة العلوم المضبوطة وخاصاً بما يختلف فيه الناس ويتباينون ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نستغنى عن الاحتياط الى مدى بعيد ، وأن نأمن الخطأ الى حد كبير حين نقول ان المرء حين يعشق ، أى حين تستبد به الرغبة وتطغى به العاطفة ، قل أن يفكر فى الاحتمالات أو فرص النجاح ، أو فيما له من الصفات والمؤهلات التى تعين على التوفيق أو تحول دونه أو فى طبيعة المرأة التى فتنته واستولت على هواه . ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدره بالرغبة فيها وتضطرم نفسه عليها ويغيم كل ما عدا ذلك فلا يرى أو يسمع أو يحس الا هذه العاطفة المتأججة التى تسد عليه كل فجاج النظر . وغير منكور أن فى الناس من يسعه ضبط نفسه وقياس آماله الى قوته وكبح عاطفته اذا تبين أنها موشكة أن تركض به بين الوعور ، كما أن فيهم من يمضى على وجهه كالمعصوب العينين أو كالمخمور حتى

ينتهي الى غايته أو يقع دونها ، ولكن هذا لا ينفى أن العاطفة تملكه قبل التفكير وهـــذا هو الذى نريد أن ننبه اليه لو أن الامر محتاج الى تنبيه

والاديب شبيه بالعاشق ، يعرض له الخاطر فيستهويه ويسحره ولا يجري فى باله فى أول الأمر شيء من المصاعب والعوائق ولا يتمثل له سوى فكرته التى اكتظت بهـا شعاب نفسه ، ولا ينظر الا الى الغاية دون المذاهب ، ويشيع فى كيانه الاحساس بالأثر الذى سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعًا ولا يندر أن يتوهم انه ليس عليه الا أن يتناول القـلم فاذا به يجرى أسرع من خاطره ، واذا بالكتاب تتوالى فصوله وتتعاقب أبوابه ، وتصف حروفه ويطبع ويغلف ويباع. ويقبـل عليه الناس يلتهمونه وهم جذلون دهشون معجبون . واذا بصاحبه قد طبق ذكره الخافقـين وسار مسير الشمس فى الشرق والغرب وخلد فى الدنيا الى ماشاء الله !! يكبر كل هـذا فى وهمه لحظة تطول أو تقصر ثم يهم بالعمل ويعالج أداءه فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة ويتقصى النظرة ويلم بهذا ويعرج على ذاك ، ويستطرد الى هنا ويمضى الى هناك ، ويدخل شيئًا ويخرج خلافه ، ثم أن يصب ذلك فى قوالب ملائمة ينبغى أن يعني بانتقائها،وان يتوخى في الأداء ضرورات تقسره عليهـا طبيعة الخواطر او المسائل — هذه تتطلب ايضاحًا وتلك لا معدى فى سوقها عن تحرى القوة فى العبارة اوالاين او السهولة او الجمال او غير ذلك . وأحر به حين يكابد كل ذلك

ان تفتر حرارته الاولى وان يدب الملل فى نفسه ، وان يضجره أن يضطر ان يقطع الطريق خطوة خطوة ، ويكتب الفكرة الرائعة الجليلة التى استغرقته وفتنته ، كلمة كلمة ، ويتناول منها جانبا بعد جانب ، وان يعانى فى اثناء ذلك مشقات التعبير ومتاعب الاداء ، وان يذعن لاحكام الضرورات ، فلا يستعجل فيفسد الأمر عليه ، بل يكر احيانا الى ما كتب ويعيد فيه نظره ويجيل قلمه مرة واخرى وثالثة اذا احتاج الأمر الى ثانية او ثالثة ، ويصبر على برح ذلك وعنائه وتنغيصه وتغثيته يوما وآخر ، واسبوعا وثانيا ، وشهرا وعاما واكثر من عام أو أعوام اذا دعت الحال . وفى اثناء ذلك كم خالجة عزيزة يضطر ان ينزل عنها ويدعها مدفونة فى طيات نفسه لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وابرازها فى الثوب الذى ينسجم عليها ويجلوها للقارىء كما هى فى ذهنه أو لأن كلمة واحدة — واحدة لا أكثر — تنقصها لتستوفى حقها من التعبير الذى يكفل لها الوضوح أو الحياة ؟ كم معنى يتركه ناقصا أو غامضا وهو «يحسه» تاما ويتصوره فى ضميره كاجلى ما يكون ؟ وما كل امرىء يدخل فى مقدوره أن يحتمل هذا المضض كله . ومن الكتاب من لا يكاد يلتقى بأول صخرة فى الطريق حتى ينكص راجعا وهو يشعر بمرارة الخيبة بعد الغبطة التامة التى أفادته إياها الفكرة حينما نشأت ، ويروح يطير من فكرة الى أخرى ولا يكاد يصنع شيئا . لان العوائق التى لم يقدرها تغلبه ، والوعور التى لم يتوقعها تهيضه ، والمشقات التى لم يفكر فيها تسئمه

والأدب إلهام وفن . ولكل فن أدواته وآلاته ، ولا بد فيه من الاحسان والتجويد ، أي من الصبر وصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة وحسن الاستعداد ، وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الاحساس وحسن التخيل والقدرة على ذلك وغيره بمقصورة على الادباء ولا هي بوقف عليهم ، ولكن كم ممن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والاحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ويحدثوا فيها صوراً ويجلوها للناس كما هي فى نفوسهم ؟ ؟ الالفاظ ، التي هى أدوات الكتابة ، موجودة ولعل غير الاديب لها أحفظ وبها أعلم ، وهى فى طريق من شاء ، غير أنها ليست كل ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب. كذلك الاصباغ والالوان حاضرة من شاء مد اليها يده وتناولها وصنع بها ما أحب ، وهى مادة التصوير ، ولكن من ذا الذى يحسب أنها كل ما ينقص المرء ليكون مصوراً ؟ وكذلك لا يغني العلم بالقواعد والاصول . وما عسى أن تكون قيمتها وحدها ؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه وينقل الى اللوح ما يترقرق فى صفحته من المعانى ويجول فيه من الأهواء ، فكيف بذلك ؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، أو تقويسة الذقن معبرة عن التصميم ، أو لمعة العين شاهدة بسجاحة الخلق ورضى النفس ؟ وكيف يشعرك ما يشعر به هومن السحر أو الدلال ، أو القوة والجلال . ويفيدك ما أفاد من الانس والغبطة والروح ؟ او كيف يجعلك حين تنظر الى الصورة الحاكية تشتهى — مثله حين يجتلى

الأصل — أن تغمض عينيك وتنقل نفسك الى عالم آخر من الخيالات والخواطر والاحساسات ؟ وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر . والأمر فى كلتا الحالتين يحتاج الى فطرة مهيأة له أسبابها وذوق مؤازر وسليقة مناصرة وملكة معينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بافراغ الخواطر فى القوالب الملائمة ، والقادرة علي إحداث الصور المطلوبة فيأذهان القراء . وعلى ذلك يكون المرء صانعاً لا أكثر اذا رزق الفن وحرم الالهام — صانعاً كهذه الآلات التى تدور بلا روح وتخرج ألواناً وضروباً من الصور تعجب بصقلها ودقتها واحكام صنعها ولا تحس أن يد انسان حي أو قلبه وراءها

وكم من الناس يفكرون فيما يقاسيه الأديب ؟ ؟ أين ذاك الذى يطالع الكتاب أو الديوان و يعنى بأن يصور لنفسه الجهد الذى بذله صاحبه والغصص التي تكبدها وصبر عليها — جهد التفكير والأداء ، وغصص النجاح والفشل على السواء ؟ ؟ انه لا يقـدر ذلك الا من عانى هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها ، وشبيه بهذا أن يقف رجل من الأوساط العاديين أمام صورة يتأملها و يدير فيها عينه و يعجب بها أو لا يعجب ، وهو لا يدرى أنها ليست ألواناً وأصباغاً مزجها المصور وزاوج بينها وساوقها بل قطعة حية من نفسه اذا نظر اليها صاحبها كرت أمام عينه سلسلة طويلة من الالم واللذة والنـدم والغبطة والغيظ والكمدوالسخط والرضي والأمل والخيبة ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة

لى صـــديق مصور مخلص لفنه دعانى مرة الى محله — وكان هذا منـذ سنوات ثلاث— وقال «انى اريد ان ارسمك لانى أتوسم فى رأسك مادة صالحة لصورة لها قيمة فنية» فشكرت له ذلك وقلت له ان عنـــدى من الغرور ما هو فوق الكفاية ولم يكن ينقصني أن أعلم من فنان مثلك أن رأسى جدير بالتصوير، ثم جعلت اختلف الى داره فى الاوقات التى يعينها وأجلس اليه فى كل يوم من هذه الأيام نحو نصف ساعة تتخللها فترات أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة . فكان ربما بدأ مرتاحًا الى العمل مقبـلاً عليه مهتماً ثم لا يلبث ان تعـتريه الكآبة ويعلو وجهه الوجوم فتتدلى يداه وينثني رأسه على صدره ثم يرفعـه ويرسل زفرة غيظ من بين أسنانه المطبقة ويعود كالذى يهم أن يتناول اللوح فيمزقه ويعمـد إلي فيرمى رأسى بالكراسى والألواح ويطردنى رفسًا بقدميـه !! وكنت أحاول أن أرد اليه ما يعزب عنه فى هـذه اللحظات من خلقه الوادع وأقول له ان هـذا الذى تكابد ليس بغريب عنا معشر الكتاب وربما كنا أسوأ من المصورين حالاً وكان فننا أشق وأمر فيقول كلا ! انكم أيها الكتاب تستطيعون أن تسوقوا خواطركم ومعانيكم واحـداً فى أثر واحد فان أغفلتم معنى لسبب من الأسباب فقلما يفطن القارىء الى ما أهملتم، وهل كان يدري قبل أن يقرأ كلامكم انه كان فى رؤوسكم كذا وكذا فأوردتم منه هـذا واطرحتم ذاك ؟ ولكن صورة الوجه على اللوح اما أن تكون حية ناطقة أو ميتة خامدة الروح

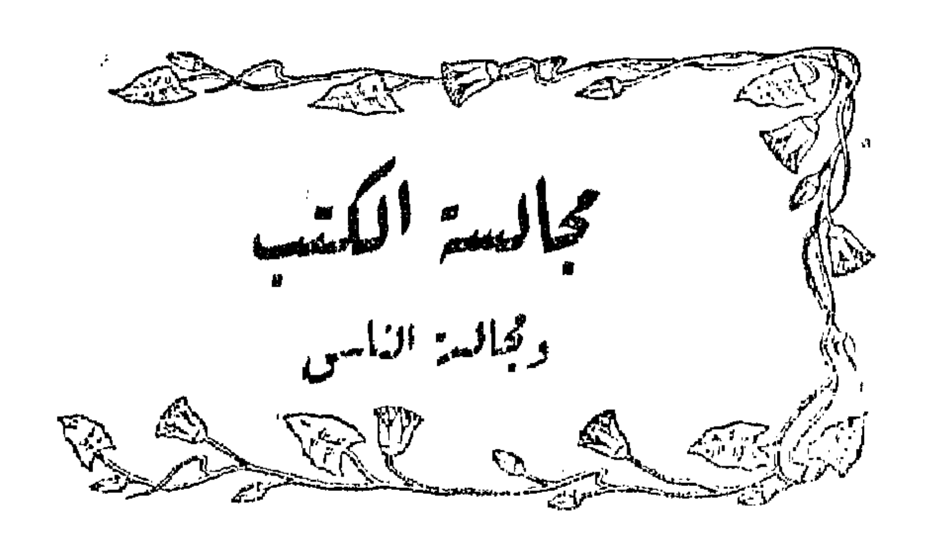
وليس يخفى موتها أو حياتها على الناظر اليها ، وقلما يفوته التقصير فى انطاق الوجه واداء المعانى المرتسمة على صفحته ، وقد تدق بعض المعانى المكتوبة عن الافهام لتعويصها أو غرابتها أو سموها أو لطفها ودقتها ولكن شخصية الانسان لا تخفى على الانسان وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لا معدى له عن أن يحسها ، والصورة كذلك ومن هنا كانت أشق وكان الاخفاق أخلق بأن يكون أبين

وأذكر أنى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً قام بنفسى أن أضع كتاباً « ضخما » فى فلسفة الشعر وأن أجعل هذا عملى الادبى فى حياتى وقلت لنفسى حسبى به اذا رزقت التوفيق فيه ، واستخرت الله فى امضاء الفكرة ولم يكن يغيب عنى فدحها فشرعت أعدلها العدة الكافية واقرأ كل ما استطعت أن أقرأه مما له علاقة قريبة أو بعيدة بموضوعى،وقسمت الكتاب الى أبوابه التى تنطوى تحتها أغراضه وحصرت كل ما أريد أن يتفرع اليه ثم لم تزل تقوم الموانع وتعترض الحوائل ومضت علي وعلى كتابى هذه السنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز الى هذه الساعة المقدمة وفصلين أحدهما هو المدخل ! ؟

ويظهر أنه ليس أعون على المثابرة والصبر من « خفة » الاحساس ومن أن يكون المرء بحيث لا تهتاج آماله أو مخاوفه الى درجة من الالم والالحاح لا تحتمل ولا يسع المرء معها رفقاً بنفسه وابقاء عليها الا أن يفرغ من الامر الذى يعالجه ولو خسر فى سبيل ذلك غايته ، وأعنى أن يكون المرء هادىء النفس قليل الاكتراث

قادراً على الانتظار مطيقاً للصبر راضياً عن نفسه مستعداً للارتياح الى كل ما عسى أن يشغله ، يستوى عنده أن يكتب فى الفلسفة أو يصف حوانيت الباعة ، وأن يستكشف القطب الشمالى أو يهتدى الى حانة تبيع الوسكى بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة ، ما دام هو الذى يفعل هذا أو ذاك وما دام رضاه عن نفسه لا يضعفه سبب من الاسباب. وليس من النادر أن يرزق هذا الضرب من الناس حظاً من البساطة الطبيعية ترفهم وتذرى منهم . ولكن ما عسى صبر الذين تطغى بهم البواعث القوية وتلح بهم الاشواق الحادة والرغبات الجامحة وتدفعهم الى محاولة الوثوب وتعجلهم ولا تدع لهم فترة راحـة يروضون فيها نفوسهم ؟

ولعل هذا هو السبب فى أن الامة الانجليزية لم تنبغ فى شيء نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره الى الارادة والعاطفة ، وأن الامة الفرنسية من « أفصح » الامم . ذلك أن الشعر عبارة عن الاحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها ويرمز له بما هو أقرب الى الصورة التى هو عليها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فاحساس كذلك ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلقى اليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها أو نشداناً لتحريكها وحفزها الى العمل ومن هنا كانت الامـة الفرنسية أضعف الامم الكبرى شاعرية وأفصحها فى الوقت ذاته اذ كانت أشدها غروراً وأعظمها اعتداداً بالنفس !



كنت أهم بأن أكتب غير هذا المقال ، وكانت الفكرة حاضرة ، والورق مهيأ ، والقلم مبريًا ، ولكنني أشرفت من النافذة فأخذت عيني صبيًا يلعب بالحصى ويهيل الرمال ، وفى ناحية أخرى فتاتان تتحادثان وتتضاحكان فقام بنفسي سؤال لم أستطع التملص منه على فرط ما جاهدت : ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبت أو بما عسى أن أكتب؟؟ بل هبني جعلت الصبي والفتاتين موضوع مقالى وأدرته على ما أرى منهما ومنه ؟ ؟ أيكترثن لى أو يحفلن بى وبما أسطر ؟ كلا ! ولعل أحرى بى أن أسأل : أيعود أحد منهم أصلح للحياة وأقدر عليها وأعرف بها من أجل أنى أجريت هذا القلم بكلمات فيه أو عنه وهو لو قرأها أو تليت عليه لما أحس انه موضوعها ؟ ؟ كلا أيضًا ! ومع ذلك أباهى بما قرأت ، واعتز — على الاقل فيما بيني وبين نفسي — بما كتبت ، وأفرح بالخالجة تدور فى نفسي لحظة ، ويجيش بها صدرى برهة ، وقد أضعها فى كفة وأضع الطبيعة كلها فى كفة أخرى ! وبعبارة

أخرى أغالى بالفن وأعدو به قدره ثم اقلب بجزاء من يفعل ذلك !

أى شيء هـذه الكتب ؟ ستقول انها عالم حافل بالمتع ، وانها لكذلك ، ولكن أين ذلك الذى يسعه أن يزعمها العالم الوحيد ؟؟ وهى ديوان قيد فيه السلف ما وسعهم أن يورثونا اياه من معارفهم وخواطرهم وتجاربهم غير أن هـذا ليس معناه انها كل ما يمكن أن نعرف أو يخطر لنا أو نحسه أو نجربه . والحياة كتاب أوسع وأضخم من كل ما حوت المكاتب قديمها وحديثها وليس ما على رفوفنا سوى صفحات قليلة من هذه الموسوعة الهائلة . ولقد عبر « هولاكو » على جسر من الكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقل الزمن رجله ، ومضت الحياة فى طريقها كأن لم يحدث شيء ولم يفقد الناس هذه الكنوز ، بل كأن لم يكتبها أحد ولم يضن فيها نفسه ، ولم يخلق فى تحبيرها ايامه ، ولم يبل فى اخراجها حياته ! بل كأن لم يكن أصحابها قد خلقوا قط ! وهل ما أخرج الكتاب من آثار أقلامهم هو كل ما كان يمكن أن يكتب ؟؟ لا أظن أحداً ممن يعانى الكتابة يذهب الى هـذا فلعل ما كتبوا ليس الا بعض ما اضطرب فى صدورهم وقد لا يكون خيره . والكتاب الذين ظهروا فى هذه الدنيا ليسوا كل من يحس أو يفكر فرب تاجر يمسى ويصبح بين السلع جيدها ورديئها ، والمساومات شريفها ووضيعها ، والمكاسب حلالها وحرامها ، هو أبعد مدى ذهن وأوسع مضطرب فكر من كانت أو كونت أو من شئت غيرهما ، ورب حمال يقضى عمره حانياً ظهره للاثقال هو أحس بالحياة

والطبيعة من ابن الرومي ، وقد تزدري أميا جاهلاً وهو — لو علمت — أحكم طبعاً من المتنبي ، ولكنه الغرور ولا أدري ماذا أيضاً — فليس أبغض الى من التقصي — يخيل لنا أن الحياة تعقم بامثال من ظهروا و يظهرون فيها من الكتاب والشعراء والفلاسفة ومن اليهم ؟ وكل هؤلاء الذين نعدهم « نكرات » يأتون الى الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلفون وراءهم أثراً أدبياً والدنيا لا تنقص بذلك كما انها لا تزيد بمن نعرف من أبنائها « المعارف » ! والحياة كالاوقيانوس الاعظم لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما تأخذ منه ! وهب الدنيا خلت ممن عليها من الناس ، وصفرت من كل أصناف الخلق فماذا اذن ؟ لا شيء ! تظل الارض دائرة حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن اضاءتها كما تفعل الآن اذ نحن عليها نروح ونجيء ونكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت ! ونحن نموت أفراداً وجيلاً فجيلاً أليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة فى نظرنا — لو انه بقي لنا بعد الموت نظر — ولا نعود نحن فيها ، أليس هذا هكذا أيضاً ؟ فهب جيلنا كان آخر جيل ، أفتظن أن الدنيا كلها تقضي نحبها من أجل أننا نحن قضينا نحبنا ؟ اذن لا « تصوب » نظرك يا مازني الى هذه الحيوات الصغيرة الساذجة التي تبدو لعينيك اذ تطل من نافذتك ولا تبتسم اذ تجتلي مظاهرها كأنك تزدريها أو « ترثي » لاصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ما عرفت . فانها حافلة بالمتع والعجائب

كهذه الكتب التى تعنى بها ولا تكاد تحفل ما عداها ولعلها — لو بلوتها — أجدى عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه

وما من ريب فى أنى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة ، لخرج المقال من يدى على غير ما يخرج الآن ، ولكان الارجح فى الاحتمال أن أشيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها ، ولكنى لسوء حظها كبرت !! وبلوت من جرائرها ما أسخطنى عليها وبحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندى غثة لا تكاد تساغ ولا تستمرأ ، وأنى مضطر أن أعالج نفسى لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول لأستمتع بها . وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكراهة لمخالطتهم ولكنها الكتب قبحها الله ردتنى كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش ! ألست قد عشت بين خير العقول وأحس النفوس ، وألفت أن أتناول عصـــارة الاذهان وخلاصتها النقية الممحصة ، واعتدت الصقل فى سوقها والفن فى عرضها وابرازها ؟ فما عسى الصبر اذن على أحاديث المجالس الخاوية المكررة المبتذلة ؟ ؟ كيف لمن يقضى الشطر الاكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتابها ، باطاقة المستوى الذى لا تكاد ترتفع عنه أحاديث المجالس ؟ ؟ وما للكبر دخل فى هذا ولا للغرور أصبع فيه ولا ظفر ، وانما هى العادة التى يقولون عنها انها طبيعة ثانية . وما مثلى الا كمثل الذى نشأ فى بيئة ارستقراطية كما يسمونها ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ،

مثل هــذا لا يحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهارة أو العملة و باعة الاسواق . ولا شك أنه يحادثهم أحيــانًا و يحتك بهم قليلاً ولـكن هذه ليست معايشة ، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يصدر الى واحد منهم أمراً أو يبتاع سلعة أو يفعل ما هو من هــذا بسبيل ، ولو أنه جالس طائفة من هذه الطبقة لملها واستثقل وطأتها على كاهل صبره . والعكس صحيح أيضًا . وليس السبب أن هذا من طبقة عالية وذاك من طبقة واطية أو متوسطة بل السبب فيما أظن هو أن من تتباين نشأتهم وتتباعد طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة ، والاحاديث تدور على الاكثر فى هذه الدائرة . ومن هنا لا يطرد الحديث فى مجاريه العادية بين من ألفوا الـكتابة والقراءة و بين سواد الناس . ذلك أن الـكاتب اعتــاد التفكير واطالة النظر الى المسائل من كل الجوانب التى يتفطن اليها و يسعه أن يحيط بها ، وان يعرضها مرتبة مبنيًا بعضها فوق بعض و يسوقها فى عبارة يتخيرها لها ، وليست الاحاديث كذلك . فهى متقطعة متوثبة سطحية فى الأعم والأغلب ، ولا يزال الناس ينتقلون فى مجالسهم من موضوع الى آخر ولا يتريثون هنا أو ههنا ، فيكون الـكاتب بين أمرين : أن يلزم الصمت . أو أن يثقل على جلسائه . ولا شك أن غشيانه المجالس واختلافه اليها يصقله و يعده لها و يذلل له ما تقيمه عادته من العقبات وقد ينفعه ذلك و يحرك ذهنه و يطلقه من القيود التى تحفه بها مزاولة فنه . ولـكنه لا شك أيضــًا فى أن روح الاحاديث هو

التعاطف وان تباعد ما بين الجلساء يضعف هـذا التعاطف ويحيل المحضر موقراً باحتمالات الملل والسآمة من الجانبين . والمرء لا يستطيع أن يسمو فوق مسعاه لان استطاعة ذلك معناها أن المرء يسعه أن يحلق فوق نفسه وهو عين المستحيل . واعلم أن « الماسونية » ليست بمقصورة على رجالها وأن لكل طبقة منها نصيباً وكما أنه لا يفهم رموز الماسونى حق فهمها الاصنوه وقرينه كذلك لا يتم التفاهم الا بين القريبين . على أن بعض الناس يذهبون الى أنه لا خير فى محادثة القرناء اذ كانوا خلقاء أن يعرفوا ما عساك تقول وانما يحلو الحديث وتجدى — كما تجدى الصداقة — بين المختلفين . وهذا صحيح ولكنه ليس كل الصواب لأن كون اثنين فى مستوى واحد لا يستوجب التطابق بينهما . وهذه المدارس تلقن التلاميذ علوماً واحدة غير أن هذا لا يجعلهم أشباهاً ولا يحيلهم كالنسخ المتعددة من الكتاب الواحد . وقد يقرأ الكتاب رجلان ويخرج أحدهما بغير ما يخرج به صاحبه

والكاتب يعنى بالفكرة قبل أن يعنى بوقعها ، وهمه الاول جلاؤها وعرضها فى أحسن حلاها وأقواها . ولا ريب أنه وهو يكتب يجعل باله أيضاً الى التأثير ، ولكن هذا لا يشغل من نفسه الحيز الاكبر بل هو يأتى تبعاً لمعالجة الاداء . والحال على خلاف ذلك فى الاحاديث فأن المرء لا يزال يدير عينه فى وجوه الجلساء ليستشف منها الأثر الذى أحدثه كلامه . وما أشبه الكاتب بالممثل

الذى يعنى بدوره ويصرف همه الى القيام به ويخلى ذهنه ، على قدر ما يسع انسانًا أن يفعل ذلك ، من التفكير فى جمهور النظارة الذين يجعلونه قيد أبصارهم ، أما حديث المجالس فقريب الشبه بالخطابة بل هو صورة مصغرة منها ، والمرء لا ينفك كما أسلفنا يستنبىء الوجوه ويستخبر العيون ويحاول أن يتخذ منها مرايا يجتلى فى صقالها وضاءة حديثه وبهجة كلامه : ومن ذا الذى لا يعنيه ما يند عن شفتيه ولا يبالى أين وقع ولا يكترث لكلامه أتلقفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد ؟ ؟ ولهذا لا يسع المرء الا العناية بأمر جلسائه والا مراقبة حالة نفوسهم فيرتفع معهم ويحلق اذا رآهم مطيقين للتحليق راغبين فيه مستعدين له ويهوى معهم اذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك .

وأتعس المجالس وأثقلها على نفس الاديب تلك التى تتألف من الاوساط أدعياء الثقافة . فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول عن الصحف والمجلات يلوكون فيه ما تكتبه لهم . ويفسدونه افساداً لا سبيل الى الصبر عليـــه . وعذرهم واضح وعذرك أوضح . فالموضوع الذى يردونه منك اليك لا يعنيهم كما يعنيك ولا يستمدون الباعث على طرقه من أعمق أعماق نفوسهم مثلك . وقـــد لا يدرون عنه الا بعض ما التقطوه منك . وتشعر بالتقزز اذ ترى القوم يمزقون بأنيابهم خواطرك ومعانيك ويلقونها اليك خرقًا قذرة وتصدك الآداب العامة عن تنغيصهم ، ويقضى ذلك على

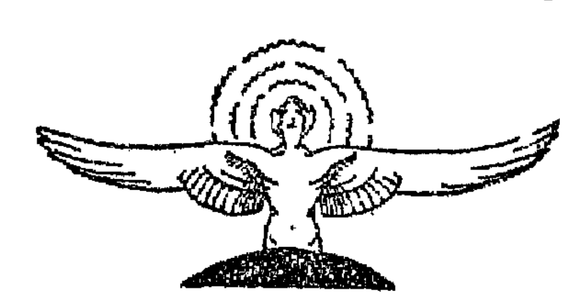
صدق السريرة ويذهب بالاخلاص ويغيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستفادة من الاجتماع ، ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها وبعض ما يقال عنها ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالاعلانات حتى لكأنهم فهارس حية أو قوائم متنقلة !

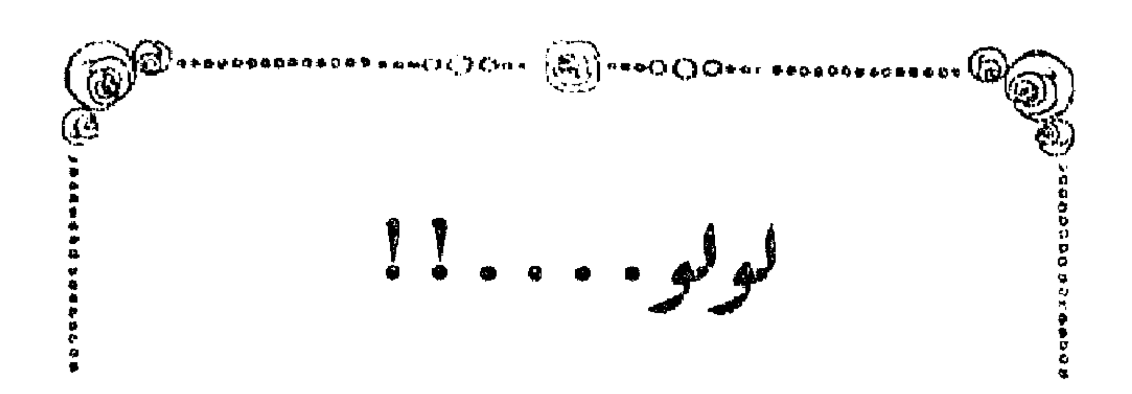
وليس من النادر أن يكون الادب أو العلم أو غير ذلك مما اشتهرت به من ذنوبك عند بعض الناس ، فلا يكاد يغشى أحدهم مجلساً لك أو يلتقى بك حتى يشرع فى تنغيص متعك وتكدير صفوك . فاذا كان الشعر فنك أنحى على الفن كله وبسط لسانه فيه وسمى كل سخافة « خيال شاعر » واذا مدحت شيئاً أو أظهرت ارتياحك اليه أو ولوعك به ذمه وسخر منه أو عرض بسوء رأيه فيه واحتقاره له — ولك ضمناً — اذا جبن عن التصريح وهكذا يظل يطاردك ويتعقبك حتى يسود الدنيا فى عينيك ويملأ نفسك نقمة على الحياة والناس اكراماً له !

والاديب كالمغنى الذى يرسل صوته غير معتمد على آلة موسيقية تشبع أنغامه وتسد نقصها وتملأ فراغها ، وقد ألف أن يجعل معوله على ما للعبارة وحدها من وقع ، وليست كذلك الاحاديث التى تستمد جانباً كبيراً من قوتها أو حلاوتها أو بهجتها من المكان والاجتماع والجلساء وهيئة المحدث واشاراته ونظراته وصوته . ومن هنا يخطىء كثيرون ممن يبرزون فى المجالس فيحسبون أنهم

يستطيعون أن يظهروا فى عالم الكتابة كما ظهروا فى عالم المجالس ويتوهمون أن الوقع الذى يوفقون اليـــه فى أسمارهم لا يخطئهم اذا تناولوا القلم وأجروه بدلاً من اللسان .

وليس أشق — عندى على الاقل — ولا أشد اجهاداً للاديب من مجالس النساء ! ماذا يقول لهن ؟ ؟ فى أى شىء يحادثهن ؟ ؟ كيف يجعلهن يرتحن الى حديثه ويتقى املالهن ؟ ؟ هن لا يكدن يحملن معهن غير ثيابهن وزينتهن وعجبهن وما يتصل بذلك من قريب أو بعيـد ، وهو لا يكاد يحمل معه سوى آرائه فكيف السبيل الى التوفيق بين هذه وتلك ؟ ؟ ومجالسة الكتب تحيل المرء أشبه بها حتى ليعود وكأنما لا ينقصه الا أن يغلف ويوضع على الرف بين اخوته !! وطول العهد بها يشيب النفس قبـــل اشابه الرأس ، ويطفىء لمعة العين ، ويعوق تدفق النشاط الجثمانى ، ويغرى بالسهوم والصمت ، ويفعل ما هو شر من ذلك : يبعث على التعلق بالمثل العليا وصور الكمال ويُشرب النفس حبها ويعلمها نشدانها فاذا راح يضرب فى غمرة الحياة تعثر ولقى فى كل خطوة صدمة : كالذى يسلك طريقاً ومعه مصور لخلافه :!





لولو . . . . ! !

لولو ؟ ! ما « لولو » هذا أو هــذه ؟ أهى فتاة حرة المقلد ؟ أم طفل غرير مدلل ؟ أم زهرة نضــيرة ؟ أم عصفور مغرد ، أم أغنية شجية ؟ أن فى اللفظ ما يشعر « بالصغر » ويكر بالذاكرة الى « الشباب » — ان كان قد ولى أوانه — وحسبك أن نطقه يتقاضاك زم الشفتين ، وتكليف العينين ابتسامةَ الدعابة ولمعةَ الغبطة ، وتجشيم الاسارير الابراقَ ، والنفس محاولةَ الاشراق ، فماذا هو ؟ لا أدرى ! ! ولعله كل ذلك ، فما أعرف من اللغات الا ما ليس فيه هذه ، ولقد شببت عن الطوق « جداً » وارتفعت عن كل حداثة ارتفاعاً أجاسنى على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء ، وأما الشباب و إيماض العيون واشراق النفس فانى أنا القائل :

نضب العزم ، والمنى ثرة العين	لعمرى ما أسوأ القرناء !
شيبة العزم مع شباب الامانى !	أضعيف يظاهر الاقوياء ؟ ؟
دون ما تبتغى حوائل ضعف	فاجعل العزم والمنى أكفاء !
أيها « الطين » ماترى بك أبغى !	لست فيما أرى لشىء كفاء !!

ان طلبت السماء قلت لى الارض؟ أو الارض كنت لى عصاءا
صرت حتى الذى أفكر فيه لست أسطيع صوغه والاداءا

والنفس تهرم أحيانًا قبل الجسم ، فتعود وكأن الزمان عمرها ، وإن كانت بسنها صغيرة ، وكلما أحس المرء دبيب الهرم زاد شعوره بالتبعات ، ووجد أن الحوادث لا تتوالى على روى واحداً ، وأن منطق الطبيعة غير منطقه ، وأنه يدنو من مركز الدائرة وينأى عن محيطها ويشعر بالدنيا تدور حوله فى صخب وضوضاء يزعجان تلك الخلية الضئيلة التى تسمى الحياة ، ويرجانها فيتمنى لو أنه استطاع أن يحول دون النمو ، وأن يأخذ على الايام متوجهها ، وأن يبقى عمره طفلاً يدور مع الحياة على محيطها .

ولكن الذى أدريه أن صديقًا لى ، فيه شذوذ قلما أفهمه ، قال لى عصر يوم فى الاسكندرية « متى تعود الى مصر ؟ » قلت « صباح غد » قال : « اذن قم بنا الى ساحل البحر » قلت « البحر ولا شك خير من جوف هذه المدينة فلننهض اليه اذا شئت ، ولكن الى أى بقعة من ساحله نذهب ؟ » قال « وما يعنيك من هذا ؟ أو ليس كله ساحلاً ؟ » فلم أشأ أن أثقل عليه فيضيق صدره ويسوء خلقه ، ونهضنا الى الترام فركبناه وخليت بين صاحبى وبين سبيله حتى انتهينا الى آخر موقف ينساب اليه الترام فانحدر بى الى طريق لا يفضى الى بحر ولا الى صحراء !! وانما يؤدى الى درب بين الحقول تقطعه السيارات الى ابى قير ويترقرق على محاذاته جدول صغير ، ثم

أخـذ ينفض المكان بعينه كالذى ينقب عن مخبأ فيه وهو معبس محدق فى الارض يعد خطواته فى هذا الطريق الذي ملنا إليه ، ومعلوم ان الخواطر كالمطاط لا تشغل حيزاً واحـداً على الدوام فقد ترى الخاطر الضخم مضغوطاً فى الذهن من فرط الزحام حتى ليعود كالذرة . وقد تنتفخ الخالجة الصغيرة وتملأ من الذهن كل فراغ يكون فيه . كذلك كان رأس صاحبنا خالياً الا من أمر واحد هو الذى ساقه وساقنى معه الى هذا المكان

ولم أرد أن أزعج عصافير رأسه وأطيرها عنه فتركتها تسقسق له وخليته ينصت اليها ، وسرت الى جانبـه صامتاً مخففاً الوطأ وصرت أشفق عليه حتى من وقع قدميه . وكنا قد ملنا الى جانب معشوشب من الطريق حسبته آثر المشى على حشائشه الندية لان صوت الاقدام فيه أخفت ولكننا لم نكد نقطع منه بضع عشرة خطوة حتى وقف بغتة كالذى صده جدار وأومأ بسبابته الى الارض وهو يقول لنفسه « هـذا هو المكان بعينه » وارتمى على الارض دون أن يكترث لى كأنه لا يرانى أو كأنى لست معه ! فضقت ذرعاً بهـذا الحال ، وأسفت على مسايرته ، وما ذنبى حتى أتكاف الصبر على كل هـذه الكتلة من الشذوذ ؟ لقد أردت الرياضة ولكنى أرانى كالذى خرج ليدرس موضوعاً ! غير أنى مع هذا كبحت نفسى عن مطاوعـة السآمة والاستسلام للضجر ، وأقنعتها بأن من المروءة أن يحترم الانسان احساساً — كائنا ما كان — يستغرق النفس الآدمية

الى هـذا الحد ، حد الذهول ، ويستولى على كل جوانبها ، ويملأ كل شعابها ، وينبض به كل عرق . وما يدريني ؟ لعل هـذا الاحساس ، مهما يكن باعثه المباشر ، ثمرة احساسات عمر بأسره وحياة بكل ما انطوت عليـه ! ومع هـذا ، وعلى الرغم من ذلك هممت بأن أقف على كيانه المتداعى هذا وأقول له ساخراً « أعاشق أنت يا سيدى ؟ انها لساحرة تلك التى تستطيع أن تصنع هذا بمثلك ؟» ولكنه كان خاطراً كخطف البرق ما جاء حتى ذهب . فقعـدت الى جانبه وخلعت طربوشى وغطيت به وجهه !! فاستوى قاعداً وهو يقول « انى أعرفك شيطاناً ! فلماذا أطرت أحلامى ؟ » فانحنيت له معتذراً ! فقهقه ضاحكاً وكف فجأة وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال بلا تمهيد

« لقد كان هـذا المكان ساحراً ، وكانت أوراق الشجر والحشائش كالجديدة ، يومض فيها طلها تحت أشعة الشمس ، وكان يخيل لى أنها « مستوردة » لا نابتة وكانت من رقة النضارة فى رأى العين بحيث كنت أشفق أن أطيل النظر اليها مخافـة أن أذويها باجالة الطرف فيها . وكانت الشمس ، قوية وكان يقينا لفحها هـذا السياج من النبات ومن خلفه هذه الخراف بأعيانها سوى أنها كانت مستلقية على الارض لا ترعى ، وكانت الفراشات لا تكف عن الطيران من هنا الى هنا كأنما حماها صغرُها تأثيرَ الحرارة التى تذبل ما هو أكبر منها . وكان بساطنا هـذه الاغيصان الندية ، والناس

يمرون بنا ويديرون عيونهم فينا ثم يذهبون عنا ونحن فى شغل عنهم وعن لحظاتهم بأحاديثنا و . . . . »

« وماذا كنتم تقولون ؟ أو لعله ينبغى أن أقول ماذا كنتما ؟ ؟

فلم يلتفت الى استدراكى وقال

« كانت لولو . . . . فهذا اسمها عندى . . ألا تعرفه ؟ . .

« قد عرفته الآن ! »

« . . كالتى يفيض قلبها بشىء تحبس نفسها عن الافضاء به . وكانت ربما أشاحت بوجهها عنى وأسندته الى كفها وأرسلت لحظها فى الفضاء غير ناظرة الى شىء على التعيين وتركتنى أصب فى مسمعها ما أهضب به . وقد تجيبنى أحيانًا ولكنى كنت اقرأ فى عينيها غير ما يجرى به لسانها ، فكان بيننا حديث مسموع وآخر صامت وكان الصامت أصدق الحديثين، نعم فهى عجيبة فى تناقضها ، عجيبة فى ازدواج شخصيتها ، لينة النظرة ، جامدة الفم ، ريضة الخلق ، ساكنة الطائر ، مكلومة الفؤاد ، هادئة المظهر ، تتناول كفها فلا تدرى ألينة هى أم صلبة ، وتتأمل محياها فتحس فيه الذائب والجامد ، والسلس والوعر ، والترف والخشونة ، والحرارة والفتور ، والرغبة والزهد ، والضعف المتناهى والقوة التى تغرى بقلة المبالاة وتدفع الى عدم الاكتراث بما كان وما هو كائن وما سيكون . ولقد استثارتنى رقة عينيها فأمسكت عن اتمام ما كنت قائلاً كأنما كان الكلام يعوقنى، كالذى يخلع نعليه ويدعهما ويعدو حافيًا ، وجذبتها الىّ بغتة وان

كان لا شك انها كانت تتوقع ذلك وضممتها وطبعت على ثغرها قبلة . ولكنها ضمت شفتيها ولم تعاطى التقبيل ! وان كانت عيناها قد ظلتا تامعان بنور الابتسام ، ثم مسحت بكفها على الحشائش وقالت « لا ينبغى ان نظل هكذا جالسين فقم بنا نعد من حيث أتينا فقد أمسينا . »

قلت « دقائق أخرى ! »

قالت « بل يجب أن نعود أدراجنا »

قلت « فقبلة ثانية أولا »

قالت : « حسبك واحدة» بلهجة من يكظم زفرة طويلة حارة. ثم رفعت الى وجهها فقرأت فى صفحته :

« انى أخشى ان أرعبك اذا أنا كشفت لك عن حدة رغبتى فى الاستسلام لعواطفى ! كلا ! لست بالفاترة التى تراها وأنى لأحس انه كان الاولى ألا أحبى بهذه المفاتن اذا لم يكن من حقى أن أتمتع بها . وهل وهبنى الله اياها ليتمتع بها الناس دونى ؟ ؟ »

ومع ذلك ألحت أن نعود ! ! »

وأكب ينظر الى الارض برهة وجعل يقتلع الحشائش و يعبث بها و يقول :

« ولها نظره انكار أوشك تلقى اليك بها بجانب عينيها ، كلها تصديق وكلها تكذيب ! كأننا علمتها الايام أن تستريب ولا تطمئن الي ما تسمع ، وأن تعد عبارات الحب والعطف ملقًا ودهانًا ، أو لهواً

وعبثًا ، ولكن شبابها يغريها بالركون الى ما يدرك عقلها الذى نضج قبل الاوان انه « الفاظ ألفاظ » كما يقول هملت ! فيالها من نفس ظامئة ! ما أقسى الحياة التى تحمّل زهرة ليس لها غير الحسن قوة ، ما تنوء به الشجرة الضخمة ! »

ثم التفت الىَّ فجأة وسألنى « وكم تظن عمرها يا صاحبى ؟ انها لا تزال فى العقد الثاني من حياتها ! فلشدما أخشى أن تذبل هـذه العين وأن تخلو من المعنى لحاظها ! لقد جالستها ثلاث ساعات طوال لم تنطق فى خلالها بما يملأ خمس دقائق ! وشفتاها مع ذلك تهمان أبداً بالانفراج ، ولكن شيئًا يطبقهما ويعيد ما يحاول ان ينفذ من بينهما ، الى صدرها فيعلو ويهبط وتظل الشفتان مطبقتين ! ولقـد قلت لها جادا « هنا شيء يجثم على هذا الصدر » فأدارت الى بعض وجهها ونظرت الىَّ بمؤخر عينها وقالت واللمعة شائعة فى العينين والتحجر مرتسم على الشفتين « أى شيء ؟ » قلت « لا أدرى ! ولكن هنا شيئًا على التحقيق ! وأراهن ! » فهزت كتفيها كالآسفة وقالت « لا ! أبداً ! ! » فالحفت فى المسألة وداورتها فلم يجدنى ذلك ولم أفز بطائل فليت لسانى كان فى فمها ! اذن لنطقت عنها ولرفهت عن هـذا الصدر المثقل بما لا تحسن العبارة عنه ! وهل هو الا الظمأ الى الحب ؟ ؟ هو ذاك على التحقيق ، الظمأ الى ما تحلؤها عنه الدنيا وتحرم عليها أن ترد شرعته وتعب فيها كخلق الله : وماذا عسى أن يكون غير ذلك وهى فتاة غضة الاهاب تنأى بها ظروف لا حيلة

لها فيها الآن على الاقل عن الزواج وتتقاضاها هذه الظروف عينها أن تبقى عفيفة محصنة ؟ شبابها وجنسها يأمرانها أن تنشد الحب وأن تنشد به الحياة والنسل ، والدنيا تأمرها أن ترفض هذا ، وأن تخرس اللسان الذى يدعوها اليه ، وتضع أصابعها فى مسمعيها دون الصوت الذى يناجيها به : وأى لسان ، وأى صوت ؟ انه لسان الجمال الذى يعبّدنا جميعاً وصوت الحيـــاة التى تسخرنا ولا ترحمنا ولا تعفينا ولو مقدار ثانية من الاذعان والامتثال . فكر فى هذا ثم أنكر وهز رأسك بعد ذلك اذا استطعت . »

وبعد اطراقه قصيرة أخرى :

« وتالله ما كان أقسانى عليها ، وأعنفنى بها ، وأقل ترفقى بهذا القلب الجديد ، حين قلت لها وقد ساقنى الحديث الى ذلك « ان فى وسعك أن تستغنى عن زوج بل أنت لا معدى لك عن ذلك ولا خيار لك فيه ، ولكنه ليس فى مقدورك أن تستغنى عن رجل ». ولقد لبثت بعد ذلك وقتاً أعتذر عن نفسى من هذه القسوة بالقول بأنى أحسنت اليها بالعبارة عما فى نفسها وبأن دللتها بكلامى هـــذا على مكان الجرح من قلبها ووضعت أصبعها عليه ، ولكنى أخشى جداً أن أكون قد نكأته ! »

— « وماذا كان جوابها ؟ »

— « لم تجب بشىء سوى نظرة طويلة الى الفضـــاء ! وماذا كنت تتوقع منها ؟ أن تنكر أن لها جنساً ! ولقـــد خاصرتها وأنا

أعود بها فى هذا الطريق بعد أن انحدرت الشمس فلم تنح ذراعى عن خصرها ولم تتحرك لذلك شعرة واحـــدة فى بدنها ! فكأنى كنت مطوقاً بذراعى الحى هذه دمية لا تستطيع أن تحس حرارته !»

— « وماذا أنت منها الان ؟ انى أخشى . . »

— « ماذا أنامنها ؟ لا شيء على الخصوص ! أحب أن أراها من حين الى حين وأن أستشف نفسها وأطلع من عينيها على المغيب فى ضميرها . وسم ذلك حباً ان شئت ، أوسمه لهواً ، فما يعنينى كيف تصفه ، وما أعرفنى عبأت قط بهذه الالفاظ . ولكنى لا أكتمك انى أعطف عليها وأرثى لهـــا . واحسبنى انما أعطف على نفسى فى شخصها فان لى منها مشابه . غـــير أن بيننا حوائل تتعاظم المجتاز ، وجوناً عريضاً يعيي ساقى أن تتخطياه . وليتنى أدرى كيف أحييها وأرد اليها روح الشباب الذى تقمعه الايام قبل الأوان ! ولكنى كبرت واأسفاه ! وفقدت أنفاسى حرارتها . والنساء عندى كتب تُقرأ وموضوعات تدرس لاجمال يعشق . ولقـــد كنت فى زمانى شاعراً أو شبهه ، وكان للدنيا بنفسى حلاوة ، ولكنى أصفيت بعـــد أن نضب معين الشباب وعدت كما تقول يا صاحبى « كأنى من دمائى أشرب »

قلت « قم بنا عن هـــذا المكان فقد أوجعت رأسى وسودت الدنيا فى عينى . تالله ما أجهلك بالدنيا وبصاحبتك ! » قال : لقـــد كان لا بد لى من مكاشفة صاحب بما فى نفسى وقـــد فعلت !

فاستحمقنى اذا شئت ، ولكن خل رأيك لنفسك فما أحفله كيف يكون مادمت أجهله . »

ونهضنا نعود فسمعته يقول فى بعض الطريق « لقد كبرتُ ! »
ولا أدرى كيف حدث منى هذا : ولكنى رأيتنى ابتسم وأدفع ذراعى حول خصره وأطوقه بها فانتفض مذعوراً وصاح بى
« أيها الشيطان اللعين !! »





نشأة الشعر وتطوره

كنت في ليلة أقلب ديوان ابن الرومي وأدير عيني في صفحاته متأملاً ورقها دون ما حوته من الشعر ولم يكن مرادي ان اقرأ شيئاً بل ان أحول بين العين والمطالعة ، وكانت الرغبة فيها شديدة ولكن الاطباء يعظونني أن أجهد عيني بالقراءة على ضوء المصابيح . وما أدراك ما الاطباء ! هم الذين يقول فيهم اديسون على ما اذكر ، ان المغول والتتار كانت غاراتهم كثيرة قبل ان يعرفوهم فلما ظهر الاطباء بينهم وكثروا — الى حد — عندهم انقطعت الغارات ! ! ولنرجع الى صاحبنا ابن الرومي فنقول انى بينما كنت أجيل عيني في ديوانه غير معتمد شيئاً على التعيين استوقفني قوله من قصيدة يهجو بها البحتري وكان معاصراً له :

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بهـا
من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حـين يصغي السامعون لها
ممن يميز بين النبع والغرب

رقى العقارب أو هــذر البناة اذا

أضحوا على شعف الجدران فى صخب

ولا نعرف ما رقى العقارب ولكننا نعرف ما يعنى بهذر البناة على شعف الجدران فهى ما ينشدونه ويرددونه اثناء عملهم من الأغانى الساذجة . وقد ذكرت لما قرأت هذا ، بالليلة يوماً وبالبيت موضوعاً له قيمته فى نشأة الشعر . فأما اليوم فكان فى الاقصر منذ عامين وبضعة أسابيع وكنا — انا والاستاذ الدكتور حسين بك هيكل — فى معبــد الملكة حتشبسوت فيما يسمى الآن « الدير البحرى » وهو معبد منقوب فى الجانب الشرقى من وادى الملوك وممتد شرقاً الى الصخور التى تفصــل الوادى عن سهل طيبة . الى هذا المعبد أقلتنا مركبة ذات عجلات عريضة هى شر ما يحمل أنساناً فوق تلك الارض الصخرية . وكان النهار قد انتصف فاتخذنا من الحجارة كراسى ومن صخرة ضخمة هناك مائدة تناولنا عليها طعامنا بين أعمدة البهو الاسفل عنــد مدخل المعبد وحولنا رسوم ونقوش محت الايدى والايام بعضها ولم تبق منها واضحاً سوى صف من الجنود يحملون عدا السلاح اغصاناً والوية يقابلهم فريق من الرماة والى اليسار صور قصابين وكهنة يعدون الضحايا والقرابين وفوق هؤلاء وأولئك زوارق تنحدر على النيل وفيها مسلات . فلما أصبنا حظنا من الطعام رقدنا على الارض وأسند كل منا رأسه الى حجر سد مسد الوسادة . وانا لكذلك واذا صوت فضى النبرات يصافح

آذاننا فراعتنا حلاوته وضاعف حسنَ وقعه ما يحيط بنا فى هــذا الوادى القفر من الاطلال وما تثيره فى النفس من الخوالج والذكريات وسألنا الحارس فقال هؤلاء عمال يحفرون الارض ويرفعون التراب عما يظنه مستأجرهم أثراً أو قبراً ، وعادتهم ان يغنوا وهم يعملون فاعتدلنا حيث كنا وجعلنا بالنا الى هذا الصوت وكان صاحبه كلما غنى شطراً اجابه جمهور الفعلة ورددوا على أثره جملة لا تكاد تختلف يعيدونها ويرجعونها بعد كل وقفة منه . وكان الوزن ظاهراً فيما يغنى الصبي وتعيد الجماعة فحاولت أن أدون ما ورد سمعى من ناحيتهم ولكن بعــد ما بيننا وبينهم حال دون الدقة فى النقل والضبط فى الرواية وعلى ان ما أثبتّه من ذلك قد ذهب لا أدرى أين ؟

وهذا كل ما اهتديت اليه :

أنا اجول للزين سلامات   على حسب وداد جلبي

خبط الهوى على الباب   جلت الحبيب جانى

أتاريك ياباب كذاب   تنهــد مــن عالى

ولقد كنت أحب أن أورد للقارىء سطوراً أخرى من ذلك ليس أعون منها على تبيين ما أريد أن أقول غير أنه يعزينى عن فقد ذلك ان القارىء لا يعييه أن يجد بديلا يقوم مقام ما ضاع منه . وما عليه الا ان يلاحظ النوتية وهم يعملون فى زوارقهم أوسفنهم أوالعمال وهم ينقلون الاحجار أو يحفرون أرضاً أو يجرون ثقلاً أو نحو ذلك فانهم فى اكثر الاحيان يغنون ويتسلون بمثل ما كان جماعة العمال

فى طيبة يغنون و يتسلون ، وا كثر ما تجد ذلك فى القرى النائية عن الحواضر وفى حيثما يحتاج العمل الى أيد كثيرة تشتغل معاً وفى وقت واحد . غير ان هذه الاغانى ليس لها ضابط أو صورة نهائية . إذ هى لا تنفك تتغير ولا تثبت على صورة واحدة بل تنشأ وتتحول و يطرأ عليها جديد يوقع على أنغام قديمة أو تغنى مقاطيع منها قديمة على ألحان جديدة . وقد يثبت ما يردده المشتركون فى الانشاد و يتغير ما يغنيه الفرد ، وفى وسع المغنى الذى يكون كالزعيم للجماعة أن يبتكر ما يشاء و يرتجله وأن يستحدث فى المأثور الذى يحفظه و يقدم و يؤخر فيه و يمضى فى ذلك كله الى غير غاية مستمداً من ذا كرته أو من وحى الساعة أو من إلهام العاطفة التى تملكه أو من هاتيك جميعاً . فليس أسهل من الارتجال فى مثل هذا الموقف . والقارىء اذا تدبر عصور الشعر العربى خليق أن يتبين منها أن الارتجال يكثر فى أولاها أى فى العصور التى يكون الناس فيها متقاربين متشا كلين لا يتميز بعضهم عن بعض كثيراً . والمرء اذا ألفى نفسه بين أترابه وأنداده اطمأن وأرسل نفسه على سجيتها لانه فى هذه الحالة يضمن المقدار الكافى من التعاطف اذ كان بين مماثلين له

وهذه الاغانى التى نتكلم عنها كثيرة فى المدن والقرى وان كانت فى القرى اكثر منها فى المدن . ولكن ما أقل ما يستطيع المرء أن يدون شيئاً منها على أنه مثال لها وعنوان عليها ! ذلك انها كالتيار العام قطرة منه أو ملء ماشئت عمقاً واتساعاً ، ليس بالتيار !

كذلك يكتب أحدنا مقطوعات يسمعها من هـذه الاغانى القديمة المتجددة كموج البحر فاذا هو لم يفز بشيء لانها لا تستقر على حال ولا تثبت كما أسلفنا على صورة

ودع الحاضر وارجع الى الماضى وصور لنفسك جماعة من الناس لا يزالون على الفطرة لم يأخذوا من المدنيـة بنصيب ولم تقسمهم الصفاتُ الشخصية والملكات العقلية طوائف ولم يفرق بينهم اختلافُ المراتب وتباين الاعمال وتعـدد الآراء . وتلك مرتبة من الحيـاة لا تكون فيها أبواب التعبير الطبيعى موصدة ولا يجهل فيها المرء — أو لا يحس أنه يجهل — ما يجرى فى ذهن جاره أو رفيقه ولا يستحيي أن يعرب عما يجول فى خاطره ويجيش به صدره مخافة أن لا يفوز بالعطف والتقدير اذ كانت حدود الفرد هى حدود التقاليد المشتركة بين الجماعة كلها . فى هذه المرتبة من الحياة كيف تكون نشأة الشـعر ؟ يكون — كما هو ظاهر بالبداهة فيما نظن — عملاً من أعمال الجماعة كلها وملكا لهـا لا لفرد . ويجىء تاليًا للرقص والغنـاء وتابعًا لهما ومتفرعًا عنهما وغير منفصـل منهما فان شككت فى أن الامر لا بد أن يكون كذلك فقل لى أيهما تظن كان أسبق فى تاريخ الانسان : الحركة أم اللغة ؟ نحسب أن الجواب على هذا لا يمكن أن يتعدد ! فان الانسان قد صدرت عنه الحركات قبل أن يعرف ان له لسانًا يمكن أن يكون أداة لنقل الاحساس أو الخاطر الى زميله الانسان . فالحركات البدنية أسبق من اللغـة على التحقيق . ولـكن هل الوزن

كذلك ؟ نقول نعم ولا نتردد، لأن الوزن ليس شيئاً سوى الانتظام في الحركات فهو أشد ارتباطاً وأسهل مساوقة لحركات الجسم، وما زالت الاشارات والحركات من متممات التعبير اللفظي الى الآن، واللغـة ليست إلا اداة للتعبير تحل تدريجاً محل ما كان قبلها هو الاداة لهذا التعبير، لأن العبارة عن العاطفـة بالحركة الموزونة على تدفقها، أسهل — ومن أجل ذلك كانت أسبق — من العبارة بالألفاظ التي انتظمت بها الأصوات وتعينت واستقرت على معاني صارت محدودة مألوفة. ومتى انتظمت حركات المجتمعين واتزنت على مقتضى العاطفة المشتركة بينهم — لفرط تماثلهم — كان من المعقول بعد ذلك أن تخرج الالفاظ مستوية في ترتيبها على وزن هذه الحركات، وعلى ذلك يكون أول ما عرف الانسـان من الشعر هو عبارة عن لحن موزون يند عن أفواه المجتمعين إذ كان جارياً على ما تتطلبه وتؤدي اليه الحركات التي يشتركون فيها ويؤدونها معاً على نسق واحد وعن عاطفـة عامة شائعة بينهم على السواء، وليس من الضروري ولا من المفروض أن يكون لهذا اللحن معنى معقول لأن كونه معقولاً أو غير معقول مرجعه الى الفكر، ولـكن العاطفة أسبق في تاريخ النشوء الانساني من الفكر

اذن كان الشعر لأول ما عرفه الانسان الفاظاً مجموعة تكرر، وأسماء تتخلل الألفاظ، وعبارات لها قيمتها الايحائية عند الجماعة

لا أكثر،على الأرجح، وصرخات تند بين ذلك، مصبوبا كل هذا في قالب موزون على حركات الجماعة في حفلاتها المختلفة لمناسبة زواج أو وفاة أو غير ذلك ومعقول أن تكون الاشارات أو التلاحين أبرز من سواها في هذا الطور الساذج

ثم ماذا ؟ ثم يا سيدى يجد عامل جديد يؤدى الى التطور. كانت الجماعة متشاكلة الأفراد ولكن التميز يحدث ، و يقوى الشعور بالذات شيئًا فشيئًا ويزداد الاحساس بالاستقلال و يبرز الفرد تدريجًا و يأنس من نفسه ما لا يأنس غيره من نفوسهم فلا يقنع بأن يبقى في حلقــة الجماعة يردد ما يقولون وليس له من الشأن إلا مثل ما لكل منهم ، و يندفع مجترءاً على التقاليد- لأنه لا يسعه إلا هذا — و يعلو بصوته أصواتهم فيروعهم فتخفت أصواتهم قليلاً و يمضون في حركاتهم ولـكن عيونهم تتعلق به وآذانهم ترهف له فاذا به يستحدث ما لا عهد لهم به و يدخل على ما كان قصاراهم أن يفعلوه ، حواراً مرتجلاً يقص به قصة ساذجة بطبيعة الحال . فيحسن وقع ذلك في نفوسهم و يطيب لهم أن ينصتوا ولـكن الطفرة محال كما يقولون فلا يصمتون كل الصمت بل يتعلقون بعبارة مما يسمعون منه فيرددونها وراءه كلما سكت . وليست هذه بالخطوة القصيرة . فقد كانت الجماعة قبل ذلك هى المؤلفة للانشودة — اذا جاز اطلاق هذا اللفظ على ما كانوا على الارجح يتصاخبون به — وليس للفرد الامثل ما لسواه من الفضــل . ولـكن الجماعة بعد الآن بدأت تقتصر على الرقص

والاشارات وتجتزىء بسماع ما يصبه فرد فى آذانها وبترديد عبارة معينة لا تعدوها وصار عمل الفرد فى ابتكار القصة أو الحوار أبرزَ وأظهر وهو يروى ويقول ما تخطره الظروف فى ذهنه وتجريه فى باله وعلى لسانه، وهى تكتفى مما كانت تقوم به بمشاركة هذا الفرد فى حالته النفسية وبترديد ما يوكل اليها ترديده

ثم تتوالى الخطوات متتابعة متلاحقة كالعجلة تدور بصعوبة فى مبدىء الأمر ثم تزداد ادارتها سهولة بعد ذلك . فيتضاءل عمل الجماعة من الاشتراك فى التأليف الى الاقتصار على الترديد الى صيرورتها معينةً بحركاتها للفرد على المحافظة على الوزن ونمثل لذلك بفرق المغنين عندنا . تجتمع طائفـــة منهم هذا بعوده وذاك بقيثارته وذلك بقانونه أو مزماره وغير هؤلاء بحناجرهم ! ثم يفتتحون العمل بتوقيع موسيقى لا يصحبه غناء ثم بموشح يوقعونه ويغنونه معًا حتى اذا انتهوا من ذلك شرع زعيمهم يغنى صوتًا ينفرد هو بأكثر مقطوعاته ويشترك معه الباقون فى بعضها، وقد يغنى بعد ذلك موالاً لا يشاركه فى غنائه أحد ولـكن يظل ينقر له الموسيقى على وتر معين ليساعده على الاستمرار على تصـــور الصوت وعدم الخروج عنه . وليس هذا سوى مثل ضربناه تقريبًا للمسألة من الافهام لا لنقيس هذا على ذلك

وهكذا يختفى أثر الجماعة تبعًا للتطور ويظهر الفرد حتى اذا تألفت تأليفًا سياسيًا وانتقل بذلك مركز الثقل ظهر الشاعر الفنى

المستقل عن الجمهور وصار أمر الشعر كله الى الفرد وأصبح هذا الشعر ديوانًا تقيد فيه الاخبار وتسجل حوادث التاريخ وأعمال الابطال فيتسع الأفق ويرحب المجال امام الشاعر ويغشى غمار الحرب والسياسة بعد أن كان لا يلم قديمًا فى شعره بغير المرأة ، ويركض فى حلبة الحوادث العامة التى تمس حياة القبيلة أو الأمة ولا يقتصر على ما له علاقة بالاسرة أو النفس . وهكذا . .

والجماهير ؟ يبقى لها شعرها الخليق بمستواها . ولكنه لا يتقدم ولا يترقى . لأن مستوى الذكاء المتوسط يمنع شعر الجماهير أن يعلو ويسمو . وهذا هو حده . أما من يمتاز من الافراد عن هذا المستوى ويرتفع عن طبقة الجماهير وحاجاتها وأذواقها فلا يبقى له محل إلا بين من يستطيعون أن يقدروا مزاياه التى انفرد بها وخلت به عن الجماهير. وان أحدنا ليسمع الانشودة فى الاقصر ويسمع أخرى فى القاهرة وثالثة فى غير هاتين المدينتين فلا يملك إلا أن يحس كأن واضع هذه وتلك واحد إذ لا خلاف ولا فرق الا فى النطق والا فيما تدعو اليه الاحوال المحلية التى لا تقدم ولا تؤخر ولا تمنع التشابه بل التطابق فيما هو جوهرى .



أول معجم وأقدم ديوان

يقول شاعر قديم :

كتب الحرب والقتال علينا　　　وعلى الغانيات جر الذيول !

وبهذا البيت المفرد لخص وظيفة الجنسين فى نظره أوجز تلخيص وأقربه الى الصواب وأشبهه بالحق . ولكن القافية جنت على المرأة وساعدها فى جنايتها عليها وظلمها لها تعصب الرجل لجنسه. ولعله يعد لم يعدُ ما كانت عليه الحال فى زمنه ، أو لعله لم يقصد الى المقابلة بين وظيفة الرجل فى الحياة ووظيفة المرأة فيها وانما أراد أن يؤكد عظم ما هو موكول الى الرجل ويجسم خطره ومشقته ويبرزه فى أقوى صورة بأن يرفع قبالته ظاهرَ ما تكون عليه المرأة من خلو البال وفراغ اليد والاطمئنان والتنعم بمجهود الرجل . وعسى أن يكون

قد شكا وتضجر من حيث أراد أن يباهى و يفخر ، غير أنه على أى وجه قلبت بيته والى أى تأويل أخرجته ، قد ظلم المرأة وغمطها حقها وجنف فى حكمه وقسا عليها فيه . وليس فى مقدورنا أن ننصفها نحن من كل وجه بمقال واحد ولـكننا على هذا سنحاول أن نصف بعض ما قامت به فى تكوين هذه اللغة وفى تمكين رصيفنا القديم من ارسال بيته هذا الدائر على الالسنة الى يومنا الحاضر . وما الى ذلك من سبيل بغير أن نرد عقربى الساعة بضع مئات أو آلاف من السنين علمها عند ربك ، وأن نكر راجعين الى تلك الأيام البعيـدة التى كانت الجماعات الانسانية فيها ساذجة . أيام كان مكتوبا على الرجل أن يخرج للصيد والقنص ، والقتال أيضاً كما يقول شاعرنا ، وعلى المرأة أن تقيم فى مكانها لتعد الطعام ولتغزل وتهيىء الجلود وتصنع الأوانى وتأتى بالماء وتبنى الاكواخ وترضع الأطفال وتقوم على تربيتهم بينما يغشى الرجل الأحراش والأدغال والغـاب و يفترع الجبال و ينحدر الى الأنهار .

ولنفرض الآن ان الحرب نائمة وان الجماعة تزاول شتى أعمالها فى أمن وسكون . فى مثل هذه الأوقات يصبح الرجل فيحتمل أدواته كائنة ما كانت ويذهب الى الماء لصيد الأسماك أو يصعد فى الجبل أو يمضى الى الغابة ليقنص الحيوان . وقد يخرج الرجال فى طلب الصيد بأنواعه زرافات ولـكنهم لا يلبثون بطبيعة الحال أن يتفرقوا و يتشتتوا ولو قليلاً ، ويضطرهم ما هم فيه الى الصمت اكثر

الوقت لأنهم وهم يجوسون الأرض على الطريدة مكرهون أن يخففوا الوطأ وأن يمنعوا الجلبة وأن يكتفوا حين يريدون التفاهم فيما بينهم باللمح والاشارة على الاكثر حتى لا يزعجوا الطير أو الحيوان فيفلت منهم وينجو . والمفاجأة هنا نصف الظفر ولا يكون الكر منجحًا الا بتحريها وقديمًا قال ابن الرومى

وليكن الكر على غرة والصيد فى مأمنه سارب

ومن أجل هذا لا يحسن بهم أن يتلاغطوا كأنهم فى سمر فلا معدى لهم عن الصمت فى غاراتهم ولو كانوا كردوسًا متلاصقًا ليصيبوا الغرة ويقعوا على الفريسة . وليس معنى ذلك انهم لا يتكلمون قط بل معناه أنهم اكثر ما يكونون فى صمت يتواصون به ويلزمونه حتى يقضوا وطرهم ما ساعفتهم القدرة على الصمت وأطاقوه لأن طبيعة المهمة تقتضى ذلك وتحتمه الى حد كبير . أما قبل أن يبلغوا مكان الصيد فهم يتلاغطون ويتضاغون ويعربون ما استطاعوا عن آمالهم التى يرجون أن يبلغوها فى يومهم وعما يقدرون لأنفسهم من اللذة والمتعة فى السعى وراءها وعما يتوقعون من سرور نسائهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملأى وعياب محشوة وقامات معتدلة ورؤوس مرفوعة ، وقد يصف بعضهم لبعض ما كان فى يوم سابق وربما تضاحكوا بواحد منهم عثر وانكب على وجهه وهو يعدو وراء الطريدة أو رفسته فخر الى الأرض أو انكسر به غصن فهوى وتدحرج ، وأما وهم عائدون فقد يغنون ويرقصون سرورًا بما أصابوا

ويتحدثون بفعالهم — هذا بسرعته وذاك باحكام رميته وذلك بجرأته ورابع بكثرة ما أصاب وهكذا حتى اذا بلغوا محلتهم ألقى كل منهم حمله الى المرأة وبه من الزهو ما يصده عن الكلام أو من التعب ما يغريه بالانصراف عنه والتماس الراحة . ولكنهم فى اثناء الطرد والصيد يصمتون اكثر الوقت كما قدمنا ولما كان الصيد يستغرق اكثر النهار فهم اكثر النهار قليلو الكلام

وندعهم فى صيدهم ونعود الى المرأة . فاذا بها بين أترابها لا يضطرها عملها الى الوحدة . فهى على الأغلب تباشره فى جماعة منهن قليلة أو عديدة وفى يد كل منهن عملها كائنا ما كان وهن فى اثناء ذلك لا تستريح السنتهن فى حلوقهن ولا تنقطع عن الجرى . كعادة النساء فى كل عصر ومصر . فان النساء اكثر كلاماً من الرجال . وقد يجلس الرجل الى صاحبه وينقضى اكثر الوقت بينهما وكلاهما مطبق الفم . أما النساء فهذا هو المستحيل عليهن ! ومتى جلست امرأتان فى هذه الدنيا صامتتين ؟ ان المرأة لا تصمت ولا تكف عن الكلام إلا اذا عجز لسانها عن الجرى وانقطعت أنفاسها . لأن الكلام لا يكلفها نصباً عقلياً، وان الرجل منا ليشهد مجالس النساء فلا يسعه الا أن يعجب لهن من أين يأتين بمادة الحديث ! لقد كنت أعد نفسى فى الرجال مهذاراً كثير الثرثرة فاذا باحدى السيدات الفضليات تزعمنى صموتاً ! ؟ وما اكثر الرجال الذين

يشكون من متاعبهم العائلية عجزهم عن مواصلة الحديث الفارغ وتقصيرهم فى واجب الثرثرة !

واللغـــة الكلامية انما تتقرر وتصقل الفاظها بالتكرار . وليس يكفى أن ينطق فرد بكلمة أو ينحتها و يستعملها مرة وانما تشيع اللفظة و يعم استعمالها بتكرر الحاجة اليها وكثرة ترديدها من جراء ذلك . ولقد نحت جونسون الكاتب الانجليزى المشهور مئات من الالفاظ من اللغة اللاتينية واستعملها فى كتاباته وعدل بها عما يؤدى معناها من الكلمات الانجليزية المستعملة وآثرها عليهـــا لموافقتها لمزاجه ولما فيها من الطنطنة المرضية لذوقه

ثم مات جونسون وذهب فى سبيل من غبر فدفنت الفاظه التى نحتها معه ولف عليه وعليها كفن . ولم يعش بعده منها الا النزر الذى سد حاجة وملأ فراغًا . وكم فى لغتنا العربية مثلاً من الفاظ يخطئها الحصر لا تدور على الألسنة ولا تجرى بها الاقلام ؟ كم يستعمل حتى أشد الناس حذلقة من هذه الألفاظ الميتة ؟ ما حاجتنا الى خمسمائة اسم للسيف أو صفة له على الأصح ونحن لا نكاد نذكر السيف ؟ فموافقة اللفظ للحاجة وتكرر استعماله ولوكه مرة بعد أخرى . هذا هو الذى يذيع اللفظ و يشيع استعماله و يجعله مادة حية فى اللغة . وفضل النساء فى ذلك عظيم . هن الثرثارات اللائى يخدمن اللغة و يقررنها بالتداول و يشعنها فى الجماعه و يدرنها على ألسنتها و يثبتنها فى الذاكرة يجىء اليهن الرجل بقنصه و يقص عليهن ما جرى له فى يومه وقلما

يعيـــد القصة ولكن المرأة تحكيها لا ترابها مائة مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة ، تارة بأفاضة وأخرى بايجاز وطوراً توشيها بأخيلتها الحسية وطوراً تطرزها بوصف هيئة الرجل وهو يلقى قصته . أو بنعت ما تقدره فيه من المزايا والصفات وتخرج من ذلك وتستطرد الى مائة موضوع آخر قد يعيي الرجل أن يلمح الصلة التى تربط هذه المواضيع بالحكاية الاصلية . أضف الى ذلك ما لا تفتأ تتحدث به عن عملها أو أعمالها هى وأكثرها فى الاطوار الاولى من نشوء الجماعات الانسانية صناعى أو أدخل فى باب الصناعة مما عداه . والاطفال ؟ أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأول الى المرأة ؟ هى التى تغذى الطفل وتنشئه وتعلمه الكلام بما لا تنفك تصبه فى أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها معنى . وتفعم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغـة وتعدله اول ما يلزمه من الذخيرة فى رحلة حياته . فليست المرأة فقط عاملاً لا يستهان به فى تقرير اللغة الكلامية وصقلها بل هى أيضاً أول معبأ تتلقى هذه اللغة عنه وتحذقها منه

ولا نريد أن نقف هنا أو نقتصر على هذا بل نجاوزه ونقول أن المرأة من أكبر عوامل التوحيـد فى اللغات أو التشابه بينها . ذلك أن المرأة لم يكتب عليها الحرب والقتال كما يقول شاعرنا القديم . وانما كتب ذلك على الرجال دونها . ولم يتصل بنا ولا قرأنا أن النساء فى أى عصر كن يقاتلن الى جانب الرجال ويتولين الحرب مثلهم . ولكنهن مع ذلك كتب عليهن السبي . يلتقى الجيشان ويقتتلان

ما شاءا حتى يقهر أحدهما خصمه . وليس يندر ولا سيما فى الحروب القديمة أن يعمل الظافر السيف أو ما يقوم مقامه من أدوات الطعن والضرب فى أقفية المنهزمين وأن يتعقبهم الى ديارهم وان يقتل منهم حتى من يضعون السلاح ويسلمون . ولكنه ندر أن يقتل المنتصرون النساء وانما يسبونهن ويحملونهن معهم فى عودهم الى محلاتهم فى جملة ما يحملون من غنائم الحرب ويقتسمونهن اقتسام غيرهن من الأسلاب

وقد كانت الحروب فى الأزمنة السابقة اكثر وإن لم تكن على هـذا افتك أو أهول منها الآن وقل أن كانت تنتهى حرب بدون سبى . بل لعلنا لا نخطىء جداً حين نقول أن الرغبة فى السبى كانت من اكبر مثيرات الحروب وبواعثها . فهل يحسب أحـد ان الخود اللواتى كن يسبين فى حروب آبائنا الأقدمين كانت تقطع السنتهن وتقتلع من أصولها أو توضع على أفواههن الكمائم . ؟ لسنا نظن أحداً سيدعى ذلك أو يقول به . وكيف كان يحدث التفاهم بين المسبية ومن صارت من نصيبه ؟ كان يستعصى ذلك فى أول أيام المعاشرة وكانت الأشارات والحركات وملامح الوجه ونظرات العين تغنى فى ذلك بعض الغناء ثم يعتاد كل منهما أن يقرن اللفظة التى يسمعها بالحركة أو الأشارة أو النظرة أو غير ذلك مما يصحبها ، ويفهم منها ما يستخلصه من اجتماع ذلك . فيزيد محفوظه ومحفوظها ويدخل فى لغتها ولغته الجديد من الألفاظ والأوضاع وطريقة التعبير ويؤدى ذلك مع التكرار الى التقارب من بعض النواحى بين اللغتين

ولقد ذكرنا الحرب ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة لأحداث هـذا الاختلاط والتشابه بين اللغات . فقد كانت الهجرة كثيرة والخطف مستمراً ولما كانت المرأة بطبيعتها أو بطبيعة وظيفتها أكثر كلاماً من الرجل وكان نطاق أحاديثها أوسع ومادتها أوفر وكان سببها أعم لذلك كان من المعقول ان تكون المرأة صاحبة الفضل الاكبر فى بذر الالفاظ وما تنطوى عليه من الاحساسات والخواطر

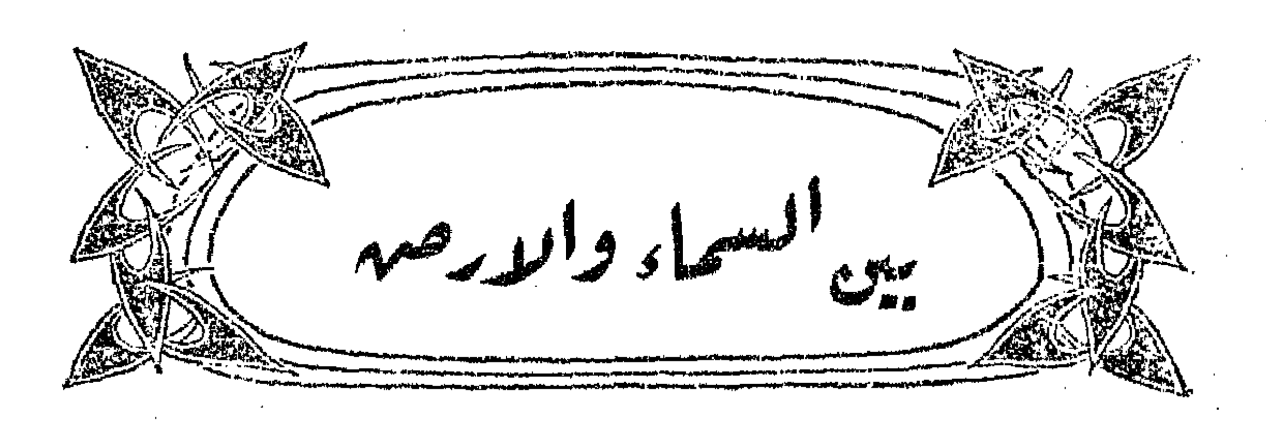
وحتى هنا لا نريد أن نقف . فانه ليس يكفى أن تخترع اللفظة أو تنحتها أو تشتقها لما تمس الحاجة الى العبارة عنه . فان الاحتفاظ بهذه اللفظة الجديدة لازم للغة مثل اختراعها أو اشتقاقها . وليس تغنى اللغة وتبقى لها ثروتها الا بهـذا الاحتفاظ ولا أعون على ذلك من المرأة . . ولا تنس أن كلامنا كله دائر على الماضى البعيد لا على الحاضر ولا الامس القريب . وكما أن المرأة كانت احسن معاجم اللغة، كذلك كانت أداة المحافظة عليها وتوريثها الاجيال التالية . ذلك أن المرأة هى التى قامت بالصناعات اللازمة للأنسان بينما كان الرجل يتولى الصيد ويباشر الحرب . وهذه الصناعات بقيت على الأيام لأنها من ألزم اللوازم الأولية وقـد طرأ عليها تحوير كثير وتولدت منها أخرى وتعددت وتنوعت ولكن الحقيقة بقيت دون أن يلحقها تغيير. وهذه الحقيقة هى أن المرأة هى مخترعة الصناعات الاولى . ومن غير المعقول كما أسلفنا أن تزاول المرأة أعمالها يوماً بعـد يوم دون أن يتحدر لسانها بالكلام على ما تفعل . بل المعقول والذى لا يقبل سواه

هو أنها كانت تهضب بالكلام وتسح بلا انقطاع وأنها سمت الأشياء أسماءها وأوجدت لها نعوتها وافتنت فى ذلك وما هو بسبيله الى المدى الذى استطاعته . ولما كانت أعمالها مستمرة متوارثة فقد ثبت معها ما تعلق بها من الكلام وصار جزءاً أصليًا من اللغة وأتيحت له فرصة البقاء وقديما لا حظوا أن المرأة على فرط شغفها بالجديد وجريها وراءه وتعلقها به ، أكثر « محافظة » من الرجل . ولعله ليس من الخطأ الشديد أن نقول انها كالذاكرة للنوع . وحسبك أن تتأمل فضلها فى المحافظة على الأساطير والخرافات وأغانى الجماعة وأقاصيصها وحكاياتها . ومن من الرجال يحفظ مثل ما تحفظه المرأة من الأغانى والاساطير ؟ أن القارىء خليق ان ينصف المرأة من هذه الوجهة اذا تفضل وذكر جلساته الى احدى العجائز فى طفولته وصدر أيامه والحاحه عليها فى أن تقص عليه بعض ما تحفظ من الاساطير والحكايات المروية عن العفاريت والمردة والوحوش وما الى ذلك . وهى التى تغنى الطفل لينام أو ليكف عن البكاء أو ليهدأ وتسكن نفسه كما لا يحسن الرجل أن يفعل ونحن الآن فى عصر المطابع فلا يسعنا أن نقدر على وجه الدقة قيمة ذلك فى العصور الخالية قبل أن توجد المطابع بل قبل أن يهتدى الانسان الى طريقة يكتب بها الكلام ويدونه . فى تلك العصور كانت المرأة هى ذاكرة الجماعة ومكتبتها وديوان أخبارها وأغانيها وأمالها وحكمها أن كان لها من ذلك شىء قليل أو كثير . وما زلنا الى الآن نرى المرأة أحفظ للامثال

وأشد أحاطة بها . واذا تدبرنا ذلك كما ينبغى أن نتدبره أفيكون مخطئا من يقول أن المرأة كانت من أكبر العوامل فى المحافظة على اللغة وفى صون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو تبعًا لذلك ؟

هذا وجه أو وجوه مما كان للمرأة من الفضل على اللغة . وثم وجوه أخرى بعضها يسهل الغوص عليه والبعض يشق مطلبه ويعز مناله . ولسنا نستطيع أن نلم بكل أوجه البحث فى مقال واحد ولذلك نرجىء التتمة ولا سيما الفرق بين لغتى الرجل والمرأة ، الى فرصة أخرى





كأس على ذكرى

قالت الفتاة للفتى — ان كان ابن خمس وثلاثين يعد فى الفتيان

« هذا أنا ... قد جئت .. »

فمد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

« أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟ »

« لا كبر ولا جفوة ... وانما أنا مغيظة »

« منى ؟ »

« كلا ! »

« ممن اذن ؟ »

« لماذا تسأل ؟ .... من نفسى ... »

« مسكينة يا فتاتى ؟ وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف »

« لست آسفة على شىء ... وهذا ما يغضبنى ! ولو وجدت لأسف مساً لكبرت فى عين نفسى .. »

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه — وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته ، فقال:

« أنت فى عينى كبيرة وجليلة »

فلان ما كان متجمداً من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها، ورقت حاشيتها وانسجم صوتها ، ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه وأقبلت عليه تسائله أصحيح ما يزعم ؟ أحق انه يكبرها وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟

فقال ، وتناول يدها فى يده :

« وما ذا فعلت يا فتاتى أو ماذا تفعلين الآن اكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتى تحت عيون هذه النجوم ؟ »

فرفعت وجهها اليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت :

« أو هذا كل شىء ؟ »

« كل شىء الآن . . . الى الآن »

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهولة المتلاحمة النجوم ، ثم قالت :

« ماذا كنت تريد ان تقول لى ؟ »

« متى ؟ »

« ونحن على الطعام ؟ »

فاربد وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ، ولم تدر ماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هى تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال:

« كنت أريد أن أقول ان هذا لذيذ » بابتسامة متكلفة

« ما هو ؟ »

« كون يدك فى يدى ! »

فانتزعتها وقالت :

« لقد أُنسيت أنها فى يدك»

« إنسيها مرة أخرى ! »

« لا أستطيع »

« تناسيها أذن ! »

« كلا ! »

« هل من سبب ؟ »

« لا ! » ممطوطة طويلة

وتناول يدها وسكتا مرة أخرى وتكلم بينهما الهوى

* * *

وقالت « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

« لن تفعلى ماذا يا فتاتى ؟ »

« ألقاك هكذا ! هى الاولى والاخيرة ! »

فابتسم صاحبها ابتسامة فيهامن الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب وقال

« لا أدرى أى سحر ضربته علىّ حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم — فى كل يوم أعالج ان أرد نفسى على مكروهها ثم ما هو الا أن أراك ، أو ان تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك ، ولا يبقى لى منى الاك ! »

« وماذا تريد أن تصنع بى ؟ »

« ماذا ؟ أريد ان أحملك معى واخفيك حتى عن عيون اخوتك ! هـذا ما أريد ! أن رأسى ليدور حين أرى أخاك او ابن عمك او ابن خالك او أحداً من الخلق ينظر اليك ! ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين ، وانى ليخيل لى أحيانًا ان تناسخ الأرواح حق وانك أنت برونهيلده بعينها يحيط بها سور النار الذى حولها »

« ليتنى كنتها ! ! ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ! تمتحن به من ينشد قلبها ! »

« بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار »

« ولكن ألا تعرف ان ما تبغى عسير لا يقع فى الامكان ؟ فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟ »

« أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه ان اهلك حمق وانهم يضحون بك فى سبيل . . . لا تضعى يدك على فمى ! دعينى أتكلم ! انهم يحولون دوننا تقديمًا لغيرك عليك وقد علموا انك لى

لا محيد عن ذلك ، عن رضى منهم أو محمولين على مكروههم ! . . »

وفي هذه اللحظة دفعتها الريح الى صدره فاسكره قربها وأخذ منه شذا شعرها . فضحكت ضحكة عصبية ورفع وجهها اليه وأهوى على فمها يقبله في بساطة كأنما كان هـذا حقًا له ، وهي تجاهد وتعالج ان تفلت من عناقه و يأبى هو ان يدعها

« انك . . . »

وعضت شفتها وردت اللفظة التي همت بها

« أنا أي شيء ؟ قوليها ! اقذفي بها في وجهي ! »

« وحش ! فظيع ! هذا أنت ! دعني ! »

غير أنه لم يدعها بل ضمها وهو يضحك في رقة وجذل وسكر حتى همست في أذنه

« لم أكن أعني ما قلت كما تعلم »

« لم تعنه أبداً بالطبع »

وقبلها ثانية

وقالت وقد تخلصت من عناقه

« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟»

« أنا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا . . . »

« يا وحش ! قوليها ! »

« ولكن أليس لك ضمير ؟ »

« ضمير ؟ ياله من سؤال ؟ بالطبع لى ضمير ! »

« لا أراك تحفل به الليلة ! »

« أنا فى شغل عنه ! قبلينى ! »

« أى فكرة ؟ ؟ ؟ »

« أفعلى »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل ! قلت مستحيل ! »

« أذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا »

« لم لا ؟ الا يسرك أن تكونى محبوبة ؟ »

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل الى شفتيها ، فهل هــذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين ؟ انها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً او قليــلا ! فياليت من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الارادة والقدرة على ضبط نفسها ، وعلى انها لم تعد تكترث لذلك او تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها !

« أمصغ أنت ؟ »

« نعم » بصوت تخفته عربدة الشفتين فى نحرها . »

« انى اعلم انى وقعت من قلبــك . لا شك فى ذلك ، والا

ما فعلت الليلة ما فعلت . ولكن أية فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عني وتعللك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل أدكارك لى . ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ انه الزهو والغرور والانانية . .

« بل قولى أنه الحب . . »

« هو هذا وذاك ، ولكنى أردت ان تذكرنى . . »

« أو تحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟ »

« أخشى ! »

« لماذا ؟ »

« كل أمرىء ينسى القبلة بعد أن تبترد شفتاه »

« من علمك هذا يا . . »

والتقت شفاهما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت

« دعنى أذهب الآن »

ولكنه ضمها وهو يقول « أدعك ؟ كلا ! انا ايضاً أخشى أن تتسربى فى الهواء اذا تركتك »

« كلا ! لا تخف »

وعاطته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فسألها

« أواثقة أنت انك تريدين أن تمضى ؟ »

« كلا ! ولكنى واثقة انه « يجب » أن أذهب »

فخلاها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت اليه وهى تقول « لا يشق عليك ما يقول أهلى . وأيقن أنى . . على . . ولكن ليتنى اكون أنا على يقين من وفائك ! »

ومضت أخف من الفراشة !

* * *

قال صاحبى

« أنا صاحب هـذه الذكرى . وهى كل ما خرجت به . وانى لأحييها فى كل شهر مرة — فى الليلة الظلماء المفتقدة البدر ، لأن ليلتنا كانت حالكة ، ولان الليل أوقع ما يكون فى صدرى حين أرسل اللحظ اريد لأخرق به أحشاء الظلماء فتشف لى عن نجوم السماء ويرتد عما دونها كليلا حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عندى حين تنتقل العين فى اجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا . . . كذلك كانت ليلتى تلك وكذلك أريغ ان تكون ذكراها فى مثلها . فأصعـد الى السطح واتكىء على السور وانظر الى السماء كما كنا ننظر . هى مفتونة بجمالها وأنا يكاد يسحقنى الرعب اذ أجيل عينى فى فيافيها اللانهائية وأقول لها فيما أقول كانما كان يعنينى أن أنغص عليها متعتها

« ثقى ان هذه السماء ليست مجهولة للانسان مهما تكن علة وجودها . وانه لا شيء في الارض او في السماء مجهول لهذا المخلوق الذي يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس اقدر من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته او لا شيئيته اذا شئت »

فتدير الى وجهها وتقول وهى لا تفهم حرفا من كلامى : « ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟ »

فأقول « يوجد — ان صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شموس ، وتوجد اوقيانوسات من الفراغ لا آخرلها يجمد الفكر كلما حاول ان يتصورها . هذا مايوجد!! »

فتبسمت ولا يبدو عليها انها فهمت فأمضى وكأنى أحدث نفسى ، وقد شعرت فجأة ، على كل حبها ، كأنما بينى وبينها بعد ما بين الارض والمشترى :

« وهذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به فى اجوازها اللانهائية . . . ليس جمالها الذي يسحرك بالخالد ولا الباقى ! حتى هذه مرجوع وهاجها رماد ! انظرى هذا النجم الذى يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر ! لقد كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى الرثاء ! ! وتصورى هذه النجوم كلها قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلمس طريقه فى سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضىء ! ! تصورى عقلك يصطدم فى ظلمة السكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! ! نحى

عينك ! غضي بصرك عن السماء اذا ان ردت انستبقي بشاشة نفسك!»

فتفزع وتقبل علي وتسند رأسها الصغير الى كتفي هذه وتريح خدها على جانب صدري وتعلق يسراها بكتفي الاخرى فأمسح لها شعرها حتى يزايلها الخوف ، واني لأراها الآن كما كانت في تلك الليلة وان كنت أنا هنا وهي هناك ، وبيننا ما بيننا من الابعاد . وآه لو ان كل ما بيننا فرسخ او فراسخ ! اذن لأمكن ان نبتسم ! وقد يعزيني — لو ان هذا مما يعزي — اننا ، سعدنا او شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا وتخفق فيها قلوب اخرى ، وترهق عقول جديدة وانها ستشهد أشجاء طريفة تُندب ومسرات ومباهج حديثة تُطلب و يستعز بها ، على حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب !

ولكنني أحيي هذه الذكرى على خلاف ما تتوهم ، فان الهواء هنا لم يهف باسمها ولا خفق على موجاته الشدو بمفاتنها ، والعيون التي تجتلي هذا الفضاء الرهيب لم تتلاق مع لحاظها ، وظلها لم يرتم على هذه الرمال ، وقدمها الدقيقة لم تطأ ذراتها — كلا ! ما من شيء هنا يعرفها او يحمل ذكرها على صدره كما أحمل على صدري حبها ، فسبيلي أن أعتمد على سور السطح واظل كذلك حتى اعود وقد شاطرت ما حولي عدم الشعور بها ! »

ثم امسك وقال بعد اطراقة قصيرة :

« والآن فلنشرب كأساً على هذه الذكرى»



ليسمح لى القارىء أن أكون كما خلقني الله ، وأن أسوق اليه الكلام على طريقتي التي أوثرها والتي تلائم مزاجي ولا تنافي مابنيت عليه . وقد شاء ربك أن يخلقني بعين لا تفتأ كلما وقعت على شيء تنثني مرتدة الى نفسي تدير فيها حملاقها مفتشة باحثة منقبة ثم يهتف بي هاتف من ضمير الفؤاد أن هات « المسطرة » فأمد اليها يدي وأذهب أقيس الابعاد بين ما كنت وما أنا اليوم .

وقد اتفق لى أمس أن ذهبت الى « ادارة الجريدة » في شأن لي فجاءني من وكلت اليه الاشراف على تحريرها في غيبتي يسألني أن اراجع كلمة كتبها أحد الزملاء ، فيها اشارة الى اصطلاح نحوي فلما كان الليل آويت الى فراشي وفي مرجوي أن يجيرني النوم من أوصاب ما أعانيه فرأيت في منامي ،وقلما أذكر احلامي، كأني بلمتي التي وخطها الشيب — قد عدت تلميذاً ، وكان شيخ من اساتذتي ، رحمه الله ، يختبر الفرقة في « المفعول المطلق » ولكن الاستاذ كان فيما بدا لي أشبه برئيس جلسة منه بمعلم صبيان ، وكان كلامنا نحن التلاميذ « الكبار » أشبه بالخطب والمناقشات البرلمانية .

ثم أفقت من حلمي وابتسمت ، فقد ذكرت بحلمي هذا الذي جره علي زميلي ، أستاذاً لي في التعليم الابتدائي أعياه أن يفهمني « المفعول المطلق » ويوقفني على « سره » ويحل لي « لغزه » وكان كلما عرضت مناسبة ، يقول لي « يابن عبد القادر »

فأقول « نعم »

فيسألني : ما هو المفعول المطلق

ولم يكن من عاداتي أن احمل شيئا — وبخاصة هذا المفعول المطلق — على ظهر قلبي من كتب التعليم . فكنت أقف جامداً ، وفمي مفتوح وعيني الى وجهه ، ولساني كأنما استل من حلقي ، ويدي تغمز جاري الحافظ الذي لا يمهلني حتى يهمس بالتعريف المطلوب فألقيه إليه وأهم بالجلوس وقد ظننت اني نجوت ، وكان يعرف اني ثقيل الاذن فيسألني الاعادة فأتلعثم وألعن من أصبحت على وجوههم ! وقد يتجاوز عن الاعادة ويقول « مثل » وهنا الطامة الكبرى !

« مثل » ! ؟ وكيف آتيه بمثال لما انتهيت منه الى اليأس من فهمه ؟ ! وكثيرا ما كنت قبل ابتداء الدرس اتفق مع جار لي ابله على أن ينهض في اثرى ويجيب عني اذا اعياني سؤال غير منتظر فكان يبر بوعده ويفعل فيتحول اليه سخط المعلم ، ويحل به وحده غضبه ، فأدعها وأقعد وانجو بهذه الحيلة التي لم تكن تجوز إلا على هذا الجار المغفل !

مر ببالي هذا وما إليه من حوادث الصبا على عهد التلمذة ، كما

تمر أشرطة العصور المتحركة على عين الناظر ؛ فقلت لنفسي — وأنا مستلق على فراشي — إن من حق المفعول المطلق أن يكون له هذا الشأن في صدر أيامي فقد كان له شأن ضخم في حداثة الدنيا أو من عليها من الآدميين وكما أن آباءنا الاولين لم يعرفوه الا بعد عصور لا يعلم طولها إلا الله ، من معاناة أزم التعبير عما في نفوسهم كذلك انت « يابن عبد القادر » لا عيب عليك اذا كابدت منه نصباً

والواقع ان هذا « المفعول المطلق » يمثل في تاريخ النشوء اللغوى خطوة انتقال اتسع بعدها الافق ورحب على اثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المغلقة . واللغات ، كما يعلم القارىء أو كما لا يعلم ! — لم يجدها الانسان تامة ناضجة مستوفية كل ما يحتاج اليه الرجل للعبارة عن مراده ، وانما نشأت على الأيام واتسعت شيئاً فشيئاً على قدر الحاجة وهى لا تزال الى الآن — وستظل — تنمو وترحب وتحيط بما كانت تقصر عنه أداتها . ومن شاء أن يقدر فضل المفعول المطلق على اللغة وعلى العقل الانسانى أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر اليها كيف تعود ؟ أو الى اى حد تضيق ؟ وقد يتعذر تقدير ذلك على وجه الدقة لأننا الآن ميراث واحد لها جميعاً . ولكن مادلالة هذا ؟ ولأى غرض نورده ؟ دلالته القريبة أن الشعوب التى تتشابه لغاتها فى هذا وغيره كانت قد اجتازت مرحلة البداوة وقضت أزمنة مديدة فى ظل السلام قبل ان تتفرق ويذهب كل منها فى ناحية وتكتسب كل لغة على اثر هذا التفرق شخصيتها وطابعها الذى

تماز به . فنشأت فى كل شعب أجيال نحتت لنفسها ماتحتاج اليه من الفاظ الحرب والمغامرة

* * *

دارت بنفسى هذه الخواطر وانا راقد ، وعينى تنظر من النافذة الى القمر الذى ينام ضوءه اللين على صدرى فمددت يدى ، الى المنضدة المجاورة وقد انسانى النظر الى القمر انى لم أعد اعنى باعداد الورق والاقلام الى جانبي قبل أن أنام وانى انقطعت منذ سنين عن استيحاء بنات الليل واستلهام طيوف الظلماء ؛ وانه ردنى عن ذلك وصرفنى عنه من جعل حاجتى الى هذه الزجاجات من الدواء



الذكورة والانوثة

١٠ فبراير . . . . الناس فى هـذه الايام آنق أزياء ، وأنظف ثيابا ، وأبهج بزة منهم فى أى عهد مضى . ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاما كنت أرى افنديا يلبس طربوشا مبطنا بالخوص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الاستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بنيقتها على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، حتى الاحذية كانت أكثر ما تكون سوداء ، ولم تكن الاقمصة الافرنجية تتعدد ألوانها ، وكان الاغلب فيها أن تكون بيضاء لامعة قوراء ، ولم يكن الشيوخ يعنون — على الاعم — باحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان او الجبة على أبدانهم او بتحرى أن يكون لون « الحزام » مجاوبا لصبغة القفطان ، او بأن تكون لفة « الشال » على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن اذا برزن الى الشوارع يصد العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها — زف يبعثره الريح فالآن صارت العين تتعب من النظر الى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات

والمهرات . نعم لا فرق الآن مثلا بين أزياء المحصنات وغيرهن ، ولكن لا بأس ، سيتميزن بغير الأزياء ، وصحيح ان الرجال والنساء تقاربوا — حسن أيضا ! ليس فى الامكان أبدع مما كان !

* * *

١١ . . . لا أدرى ممن سمعت ؛ او أين قرأت هذه العبارة وهى أن الله سبحانه وتعالى وكل الى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك ولكنى أحسب الملك الموكول اليه هذا الواجب — ان صح الخبر — قد جدّت على صوته نبرة تهكم لاذع — علينا نحن بنى آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل ان النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهن ، وان الرجال يحلقن — معذرة ! فسيختلط الامر بكرهى وكرهكم — يحلقون شواربهم ولحاهم ويتخذون من الثياب مالا يخلص الهواء بينه وبين الجسم — أمن أجل ذلك يكون الامر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر ؟ ان الصحيح فسيولوجيا هو أن الآدمى خليط من عناصر الذكورة والانوثة ، وان نسبة هذا الخليط لا معروفة ولا محدودة ، وان درجات التفاوت فيها كثيرة وان هذه العناصر يقوى بعضها أو يضعف على مدار الحياة . فلكل واحد من الذكور حظ ضئيل او كبير من الانوثة ، ولكل انثى

نصيب كذلك من الذكورة . ومن هنا يكون الشاب الذى هو فى رأى العين وفى نوع احساس النفس به وتقديرها لصفاته ،أشبه بالانثى، ومن هنا أيضا النساء المترجلات او اللواتى هن بالرجال أشبه واليهم أقرب .

والمعضل الذى يعنينى أن احله هو : هل فقد الرجال ما كان لهم فيما مضى من القدرة على اجتذاب المرأة والاستيلاء على هواها بما كان لهم من صفات طبيعية ؟ أم أصبحت الرجولة التى كانت تجدى عليهم قديما فى المعركة الجنسية لا تنيلهم شيئا الآن؟ ام ضعف احساس المرأة بهذه الصفات وانحط تقديرها للمزايا الجنسية الطبيعية ؟ او اجعل السؤال من الناحية الاخرى : شهدنا زمنا كانت فيه المرأة اذا بدا منها خنصرها من تحت الملاءة او ما يماثلها ولمحته عين الرجل شهق وفهق وانتابته كالحمى ،فالآن تبدو له نصف كاسية — او نصف عارية — وما استتر من جثمانها فى حكم الظاهر من فرط الدقة فى جعل التفصيل كفيلا بعرض المحاسن وجلو المفاتن ، ومع ذلك لا يكاد الرجل يزيد على الاعراب عن الاعجاب الفاتر ، فهل تبرز المرأة الآن على هذه الصورة المجاوزة لانها تحس أن صفات الرجولة فى الرجل قد ضعفت ؟ أم هى بدأت تتجرد وتتزين شيئًا فشيئًا وسايرها هو فى احساسه بجلوتها فألف هذا التجرد والتزين درجة فدرجة فهى أبداً تعالج أن توقظ احساسه بالجديد فالأجد وهو لا يكاد يألف جديداً حتى يفتر عن اجابة ما يهيب به منه ؟

* * *

١٢ . . . نسيت أمس الحرب العظمى وما أفقدت الرجال وكانت جنسهم من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الاجيال . وكيف احتاج الامر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن وكيف تحفظن بالمنزلة التى رقين اليها ولم ينزلن عنها ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب الى الشرق كالعادة

مثال لتأثير الحرب . . . . موافقة مجلس العموم الانجليزى بسهولة وسرعة على تخويل المرأة حق النيابة عن الامة كالرجل . وقد ظلت النساء فى انجلترا يجاهدن أعنف جهاد بضع عشرة سنة لينلن حق التصويت فقط ! الخ الخ



فبراير ١٥ . . . . يخيل لى أن الشرف والنزاهة وعفة اليد وسائر ما يجرى هذا المجرى ، مما لم يركب فى طبع الانسان ولم يفطر عليه ، ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان الانسان بطبعه مخلوق غير شريف !! والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من الاوامر والنواهى والاقاصيص وما اليها مما يقصد به الحث على هذه الفضائل ومجانبة اضدادها . ولو أن الانسان كان كذلك بفطرته وكان الاغلب والاعم فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيها شريفا لما احتاج الامر الى كل ما فى هذه الكتب مما أشرنا اليه . وكثيرا ما خطر لى أن اسأل : لماذا اتفق أن تجد من يحضك على مزاولة هذه الفضائل وأخذك نفسك بها ولا تجد واحداً يأمرك بخلافها مثلا : فيقول : اذا استطعت ان تسلب ما فى يد غيرك فافعل ! أو احذر أن تدع ما فى جيوب الناس يبقى فى جيوبهم ولا ينتقل الى جيبك ! الخ الخ ! أليس ذلك لان الأصل فى الانسان هو التطلع

الى غير ماله والرغبة فى غصبه أو انتهابه أو الاحتيال على استلابه فالحث عليه تحصيل حاصل ؟

وأحسب أن من الأدلة على ان الاصل فى الانسان هو هذا ، ان فى كل مصلحة كبيرة من المصالح — حكومية أو غير حكومية — نظاماً دقيقاً للمراجعة يضطر الناس الى الأمانة أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ويحول دون من تحدثه نفسه بالاختلاس . فأكثر الناس لا يختلسون لا لأنهم اشراف أمناء نزهاء ، بل لأن السبيل مكتظة بالوعور والعاقبة غير مأمونة . ولست ممن يستطيعون أن يصدقوا أن هذا الصراف الفقير الذى لعله ترك بيته وعياله دون ما يكفى لقوتهم ، يعف عن رضى بقسمته وقناعة بحاله ، عن قبضة مما يدخل الخزانة التى هو قائم عليها وفى يده مفاتيحها .

ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل انسان كل انسان . ولكن من العسير احيانا أن تركب الترام الى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة . وأشق من ذلك كثيراً وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة . وانى اعترف انى اذا كنت على شيء من الشرف والذمة والأمانة والنزاهة فليس ذلك لأنى خلقت متحلياً بهذه الفضائل ، بل لانه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والاقدام ، أو بعبارة اخرى لان نصيبى من الجبن فوق المتوسط ، فليس لفضيلة فىّ انى لا أنشل ما فى جيوب الناس اذ الاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لأنى أجد نشل الجيوب

أشق علي وأبعد مطلباً من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها. وكثيراً ما تخايلنى التحف الثمينة فى الحوانيت من وراء الالواح الزجاجية فاشتهى ان تكون لى بلا ثمن، واتمنى لو استطعت ان أمد اليها يدى ثم امضى فى سراح ورواح وأمن واطمئنان . ولكن هذا الخاطر وحده ، دع عنك الفعل نفسه ، يحلل قواى ويفكك اعصابى حتى لأحس أن بى حاجة الى من يأخذ بيدى ويعيننى على السير . وربما فكرت فيمن يزيفون ورق النقد ويتخذون ذلك حرفة ومتجراً فيُطير النومَ من عنى ليالى عدة هول ما يقدمون عليه من المخاطر. وما أظن بى لو انى كنت نشأت بين اللصوص والسراق ، الا أن جبنى كان قميناً أن يؤدى الى تنبيه الشرطة والحراس الى ما أنوى حتى قبل الشروع فيه ، لفرط ما أقدر انه كان ينتابنى من الاضطراب

والحقيقة أن خراب الذمة يتطلب سكونا فى النفس ، وان شئت فقل برودا فى الطبع ، وجرأة فى الجنان ، وقـــدرة على الاحتيال ، ومضاء فى العزيمة ، وليس لى من ذلك كله نصيب . ولذلك ترانى اذا غشنى انسان عفواً أو عمداً وأعطانى قطعة مزيفة من النقود لا أجرؤ — اذا فطنت اليها — أن أمد بها كفى الى أحد على أنها صحيحة ، بل أخفيها عندى أو أنتظر حتى أصير الى طريق مهجور ثم أطوح بهـــا بكل ما فى ساعدى من قوة كأنما أريد أن أجعل بينى وبينها أطول ما يمكن من المسافة . وآه اذا مررت بشرطى وهى لا تزال فى جيبى ! آه من الاضطراب الذى يصيبنى ويخيل لى أن عين الشرطى قـد

نفذت من الثياب الى حيث القطعة المغشوشة وانه يهم أن يعدو ورائى ليقبض على! وترانى حينئذ أسير وأتلفت وقد أضرب فى طريق غير طريقى لأتوارى عن هذه العين التى لا تمنعها كثافة الثياب أن تطلع على ما فى الجيوب من مغشوش!

وحدث مرة أنى سمعت رجلا يباهى بأنه أنقد (جرسون) قهوة قطعة مزيفة من ذات الخمسة القروش دون أن يفطن اليها فحسدته وتمنيت على الله أن يرزقنى بعض هذه الجرأة والثبات! وشر من ذلك وأدهى، وادعى الى الغيظ والسخط على النفس، انى ما استطعت قط أن أدع احداً — تاجراً أو صرافاً مثلا — يعطينى أكثر مما لى. وفى الناس من يستبضع ما شاء و ينقد البائع الثمن و يتناول الباقى و يعده و يجده أكثر مما يستحق فيدفعه الى جيبه فى هدوء تام و يمضى عن الدكان دون أن يختلج حتى جفن عينه. مثل هـذا أغبطه ولكن محاكاته عزيزة المنال مع الأسف! وتالله ما أحسن استقباله لما يجيئه به الحظ! ما أبرع ركوبه للمد فى عباب حياته! ما أشد شكرانه لما يناله بغير كد أو تعب!

واتفق مرة ان كان فى بيتى عمال يبنون حائطا. وكان صاحب البيت قد أنقد أحدهم الاجرة مقدما فاشتغل يوماً وانقطع أياما ثم عاد فسألته أين كان فقال وهو جذلان والله ياافندى الحقيقة أنى بعد أن اخذت الاجرة من عمى .... سهرت ليلتى تلك وشربت قليلا ومن حسن الحظ أنى انقدت الخادم ورقة بنصف جنيه فرد لى ثلاثه وثمانين

قرشا ظنًا منه انى انقدته جنيها فحمدت الله الذى رزقنى من حيث لا احتسب واحييتها ليلة فى اثر اخرى

قلت « نعم هذا حظ غريب، ولكن الم تنازعك نفسك ولو لحظة أن تخبر الخادم المسكين انه أعطاك خمسين قرشا فوق مالك ؟ »

فحملق العـــامل فى وجهى وصوب نظره فى وصعده ثم حول وجهه عنى والتفت الى عمله دون أن ينبس بحرف . وما اشك فى انه كان أعمق ما يكون اقتناعا بأنى مجنون ، من العبث الكلام معه .

وقل أن تجد من يصارحك بفساد بذمته كما فعل هذا العامل . والناس فى العادة أكثر ولعًا بالكلام على فساد ذمم سواهم . وكثيراً مايخيل لى اذ أحادث واحداً من سواد الناس فى أمثال هذه الموضوعات انى واياه الرجلان الشريفان فى هذا الكوكب الحافل بالانذال !

في الشعر الجاهلي

تأليف الدكتور طه حسين

استاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وان كان ما أثره الرواة عنه وقالوا إنه انحدر الينا منه ، لا يختلف عن جني غيره من العصور الاسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة الى الحياة متفقة ، والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يعتورها تغير جوهري . فما هو هذا العصر الجاهلي إذن ؟ إنه عصر يعرفه الفقهاء ومن يبغون أن يقيموا حداً بين الاسلام وماقبله ، أما مؤرخ الأدب فمعذور اذا أنكر ان له سمة يتميز بها وينفرد . فالجاهلية التي انتهى الينا ماروى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية اذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب الا أن يقف حيالها متردداً شاكا بل رافضاً كما فعل الاستاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي »

ولكل أدب آنفته الساذجة وحداثته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة — يصدق هذا على الجماعات صدقه على الآحاد ،

وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ فى دنيانا هذه ، ولكن الأدب العربى ليس له أول يعرف ولا نشـأة توصف اذ أقدم ما وقع الينا منه — على قول الرواة — بشحم كلاه ، ان صح هـذا التعبير ، ونعنى بذلك أن هذا القديم مستو بالغ أشـده ، وان الأطوار الأولى التى لا بد أن يكون الأدب قد تقلب فيها ومر بها ، كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، حتى تناهى شبابه على النحو المأثور ، نقول ان هذه الأطوار مفقودة ضائعة لا سبيل الى العلم بها والوقوف عليها الا تخيلا والا بالطبع فى التخيـل على غرار ما حدث للآداب الأخرى التى وقفنا على أصولها ونشأتها ، والا بأن نرسم لأنفسنا خط التطور طبقاً للسنن الطبيعية . « فالشعر الجاهلى » وصف غير صادق لأن جاهلية الأدب مطوية مع الأزمان التى غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هذا الشعر المأثور أول ما قالته العرب لأنه شعر ناضج متساوق الأغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الأدب والدين .

وليس ثم ما يمنع أن يكون هناك شعر قيـل قبل الاسلام ، بل الذى يرفضـه العقل هو ألا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشـعر الى من عاشوا فى العصر الجاهلى صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل اذا سألت هذا الشعر عن نسـبه ينتمى اليهم و يعتزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه وأسلوبه بأنه دعىّ دخيل ؟ ؟ هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل أديب على نفسه . وقد تناولهما

الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وطرح السؤالين جميعاً وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذنى الدكتور طه على غرة بهـذا الكتاب فما أعرفنى قرأت شيئاً من اخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها الا نازعنى فى أمره شك ضعيف أو قوى، والا حكت فى صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة . واشهد ان الدكتور كان بارعاً فى بسط رأيه وفى ابراز الشبهات التى تحوم حول هذا الشعر وتضعف الثقة بنسبته الى الجاهليين ، وفى تأكيدها أيضاً . ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التى جاءت — على خلاف عادة الدكتور — خالية من كثير من حشوه المألوف . ونحسب أن لا خلاف فى ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التى يخرج بها المرء ، وأن من الحماقة أن نسترسل فى الاستنامة الى ما جاء فى الكتب القديمة وان كان كل شىء يدعو الى الريب و يغرى بالنقد ، وان نوصد بأيدينا فى وجوهنا ابواب التفكير مخافة ان يظن بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف ، أو مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم ، فما زال التصديق أسهل من البحث ، والاقرار أيسر من النقد ، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذ أيضاً . وما من أحد نزع الى النقد الا اضطر أن ينبذ بعض ما يقع اليه وفى هذا الاطراح خسارة متوهمة

والنقد مهمة قاسية ، وما أكثر ما تكون بغيضـة الى القراء ، ولكننا لا نعرف احداً أحرى بالعطف وأحق بأن تلين له الافئـدة

من الناقد ، فهو لا يجد — كالكيميائى — كل شىء حاضراً مهيأ فى معمله ، وليس امامه شىء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التى تغنى عن الشهود وتقوم مقام المعاينة ، بل عليه أن يفحص كل ما تقع عليه يده ليستجلى غوامضه ويمحص حقائقه ، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانسانى نزاعًا الى التساهل ميالاً الى تناول ما يتطلب الدقة ، بغير احتمال أو تدبر . وما رأيت احداً ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته، ولكن الاقرار بذلك أسهل من المعاناة . وحسبك أن تفكر فى القرون العديدة التى مضت وعصور المدنية التى انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد فى العالم ، حتى فى عصرنا هذا لا يأمن المرء على الطالب أن يقع فى الاخطاء القديمة . لأن النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الذهن فى العادة . وقد تعلم أن الميل اللدنى للانسان هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هو اليه من الآراء والملاحظات

ألسنا فى حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز أو تمحيص ما يتأدى الينا من الاشاعات والانباء التى لا نعرف لها مذيعًا ولا ندرى ما مصدرها ؟ وقد نشذ أحيانًا عن ذلك ونجنح الى الشك والتنقيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل فى ذاته ولا بعيد التصديق ولم يبلغنا ما ينقضه أو ينفيه فانا نزدرده ونفرح به وقد نضيف اليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارىء أن المرء حين يلفى نفسه في الماء تكون حركاته الطبيعية الاولى من شأنها أن تؤدى الى الغرق . وان السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقد ليس بالعادة الطبيعية وانما هو شىء يكتسب

وقد تخالف الدكتور طه اذا عز عليك التخلى عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب اليه اذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين الا أن تقدر جهده والا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب في ان الاكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين اليه ، غير ان الشعر الجاهلى لا يصيبه شىء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله ، وكل ما يجد أن نسبته تتغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وانها لكذلك فى كتاب الدكتور

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول ان بحث الدكتور طه قاطع فى اثبات ما ذهب اليه وما نشايعه عليه من الرفض ، ولكننا نقول أن حجته أقوى من حجة القدماء ، وان رسالته ليست أكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلى اذا أراد أن يصل الى نتيجة يسكن اليها العقل ، وانها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقاط وان أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ، ذلك انه لم يوفق فى التطبيق ولم يأت بشىء له قيمة ، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلى بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه

ولا بأس من أمثلة تجلو للقارىء ما نريد

يقول الدكتور فى رسالته ان «امرء القيس . . . . . يمنى وشعره قرشى اللغة لا فرق بينه و بين القرآن فى لفظه واعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، ونحن نعلم . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز؟ بل فى لغة قريش خاصة ؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان وكان أبوه ملكاً على بنى أسد وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان و يعدل عن لغة اليمن ولكنا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته الا من طريق هذا الشعر الذى ينسب الى امرىء القيس ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل . واذن فنحن ندور : نثبت لغة امرىء القيس الذى نشك فيه ! » الى أن يقول « وأعجب من ذلك أنك لا تجد مطلقاً فى شعر امرىء القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يمنى فمهما يكن امرىء القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محواً تاماً ولم يظهر لها أثر ما فى شعره ؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة »

فامرؤ القيس يمنى ، والشعر المعزو الى امرىء القيس عدنانى اللغة قرشيها . وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول

الابيات المنسوبة الى امرىء القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وان كانت كلها عدنانية قرشية !! رفض مثلاً هذين البيتين

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف اعجازاً وناء بكلكل

وقبل هذا البيت الذى يتلوهما :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى   بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فلماذا ؟ أهو يعنى اللغة دونهما ؟ أفيه شيء يخالف لغة عدنان وقريش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الاعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً فى هذا البيت فقط؟

وقد وقع الدكتور فى مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلهل وبن حلزة وطرفة بن العبد الخ الخ وان اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وان كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعنى بها زعمهم انه خرج فى يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء . فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به « يا صاحب البغلة » وعزمن عليه الا ما حدثهن بحديث دارة جلجل قالوا فقص عليهن قصة امرىء القيس وأنشدهن قوله .

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه أنه يذكر « ابتذال » اللفظ ، و يعني أنه مأنوس غير حوشي ، و يتكلم على المتانة والجزالة و يريد بهما حشو الكلام بالغريب الذي يحتاج المرء في فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغتفر لرجل تذوق الأدب بله من يدرسه في الجامعة : ومن ذلك قوله عن قصيدة جلة في رثاء كليب انها شعر « لاندري أيستطيع شاعر أو شاعرة في هذا العصر الحديث ان يأتي بأشد منه « سهولة ولينًا وابتذالاً ؟ » والابيات التي يشير اليها هي .

جل عندي فعل جساس فيا حسرتي عما انجلى أو ينجلي

فعل جساس على وجدي به قاصمٌ ظهري ومدنٍ أجلي

يا قتيلاً قوض الدهر به سقف بيتيَّ جميعًا من علِ

هُدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هدم بيتي الأول

خصني قتل كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي

ليس من يبكي ليوميه كمن انما يبكي ليوم ينجلي

وهي أبيات ليس فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته ان لغة الكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية !! أُنظر قوله « فان في قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيراً على أقل الناس حظًا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه . وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بما يقرب من نصف قرن »

فمن أدراك يا دكتور ؟ ؟ ويالها من صورة معكوسة للغة فى ذهن الدكتور !!

وقد أطلنا جداً والصحيفة لا تتسع للأفاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخبط الطالبة منه بأبحاث الاساتذة . فليته استغنى عنه . وان الدكتور ليحسن جـداً الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل ، الى النقد التطبيقى أو الدراسات الفردية :

فهرس